



سمير قسيمي

تصريح بضياع

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

رواية


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

تصريح بضياع

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

تصريح بضياع

سمير قسيمي



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

facebook.com/the.Boooks

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-982-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

facebook.com/the.Boooks

القسم الأول

سحابة زرقاء
في سماء أكتوبر

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

- 1 -

إلـى غايـة هـذه السـنة، لم يحدث فـي حياتي شـيء يذكر، عدا ربمـا تلـك التخيـلات التي كثيرا ما تفترسـني كلما حملني التعب إلى الفراش، ورغم علمي أن الأرق غالبا ما يندسُّ تحت وسادتي، كنت أستسلم لحلم أن أنام باكرا، ولكنَّني وككل ليلة أجدني محاصرا بكل مـا لـم أحققـه طيلـة ثلاثيـن عاما من وجودي في هـذه الحياة، مجرد حياة يملؤها الفراغ، الفشل ومشاريع لا تكتمل لتبدأ مشاريع أخرى لا تكتمل بدورها. حلقة مفرغة من المحاولات البائسة، جميعها تترصد حلما غريبا راودني منذ الصغر، حلم أن أحقق نبوءة امرأة عجوز دقّت باب بيتنا ذات مساء من عام 1954.

ظهـرت النبـوءة قبـل ميـلادي بنحو عشـرين سـنة، ومن فرط ما رددتها أمي ثلاثين عاما على مسـامعي آمنت بها، لينتهيَ بي المطاف إلى هكذا حالة: جسـد ممدد على فراش من الإسـفنج، وجه شـاحب مصفر، وعينان جاحظتان تبحلقان في السماء.

سـاعات تنقضـي وأنـا أراقـب السـقف، كأنني أبحث عن شـيء رسـمته يدُ الليل، شـيء يدفعني إلى الاستسـلام للنوم، شـيء يقنعني أن نبوءة العجوز مجرد سخافات تقيأتها امرأة انفرد بها الجوع والعَوَز لتنـال بعـض الصدقـات. ورغـم ما بذلتُه من جهـد لأنتفض من حالة اللاواقـع تلـك، كنـت أعود إليها كلما صافحني الفشـل في أحد أزقة حياتـي؛ وكـم كانت كثيرة مصافحات الفشـل تلك، ولعلي كنت أجد في نبوءة العجوز ما يحفّزني على النهوض ومعاودة الكَرَّة والمحاولة

facebook.com/the.Boooks

مرة ومرتين، إذ كنت أراني رجلا تائها لم يجد ضالته بعد، حتى بَدَت الأمورُ المهمة في نظر الغير والتي كنت أتجاوزها - رغبة أو رهبة - مجرد تفاهات لا تستحق التضحية ولا حتى أدنى جهد.

كانت هذه حياتي؛ محاولات لا تنتهي أو ربما كانت كلُّها محاولة يائسة لتقرير غد آت، حتى جاء ذلك الغد، يوم خميس فيما أذكر، إذ كنت أواعد إسماعيل صديقي كلَّ خميس لنمضيه سوية كيفما شاء، وغالبا ما كنا نمضيه نتسكع في شوارع العاصمة نجوبها شارعا شارعا على الأقدام، وحين يكبحنا الإعياء ندخل أحد المقاهي لنقتل ساعات من حياتنا في الكلام، مجرد كلام. كان هذا ما نفعله أو شيئا من هذا القبيل.

في ذلك اليوم من شهر أكتوبر تواعدنا صباحا في شارع ديدوش مراد، تغذينا سوية وجلسنا ساعة أو أكثر نتجاذب أطراف الحديث في مقهى بميسونيي.

كانت هذه أول مرة أخرق فيها مبدأ من مبادئي، ذلك أنني سبق وأقسمت على نفسي ألا أدخل ميسونيي عبر شارع ديدوش مراد أو العكس.

ربما يبدو الأمر غريبا، ولكنّني كنت أعتقد أن الجمع بين رجل ثوري كديدوش مراد وسفاح كفرنالد ميسونيي- ولو في المسير- جريمة في حق الأول وانتصار لصالح الثاني، كنت مؤمنا بهذا دون أن أبحث حقيقة في اسم ميسونيي الذي سمي به الشارع، فقد قررت أن ميسونيي هذا لا بد وأن يكون السفاح فرنالد ميسونيي، الذي لقبته صحافة بلاده بجلاد الجزائر، كان رجلا ساديا، لا شيء يسعده بقدر ما يسعده سماع الصراخ ومشهد الدماء المتطايرة وهو يقوم بتعذيب الجزائريين، ولا شيء كان يدخل البهجة إلى قلبه أكثر من مشهد

facebook.com/the.Boooks

المقصلة وهي تفصل الرؤوس عن أجسادها.

هكذا فكرت، رغم أن إسماعيل كان يملك رأيا آخر، حاول أن يقنعني به.

سألني مرة وأنا أحاول إقناعه برأيي:

- ما الذي يجعلك تعتقد أن اسم الشارع هو لفرنالد ميسونيي؟

أجبته بشيء من الاستخفاف:

- ولمن تريده أن يكون، وهو اسم ورثناه من فرنسا، وليس أحب إليها من سفاحيها تزين بأسمائهم لافتات شوارعنا.

ابتسم، وهز رأسه كمن لم يقتنع، أو كمن فقد الأمل في إقناعي، ثم لم يلبث أن قال:

- لم أكن أعلم أنك بمثل هذا الجهل، أتحسب فرنسا تفضل سفاحا كفرنالد على عبقري كجون لويس أرنست ميسونيي، أحقا تصدق ذلك؟!

الحقيقة لم أكن أعرف هذا "الإرنست"، ففضلت السكوت والنظر إليه، وكأنني أنتظر المزيد، إلا أن إسماعيل كان أذكى، فتملكه ضحك خفيف، كانت هذه حاله كلما اكتشف فيّ قصورا أحاول إخفاءه، ليس لأنه كان يحب التباهي، بل لأنه كان يكره مني تعاليَ المفرط في كل شيء.

- ليس عليك إن كنت لا تعرف إرنست ميسونيي.

قال ذلك وهو ينظر إلى الأرض، يخفي ابتسامته الساخرة.

قلت معترفا:

- طيّب أنا لا أعرفه، ولكن ذلك لا ينفي شيئا مما افترضته.

facebook.com/the.Boooks

قاطعني:

- ولكنك تدّعي أنك قرأت كل كتابات أمبيرتو إيكو.

صحت فيه وقد بلغ مني الغضب مبلغه:

- ماذا تعني؟، بالطبع قرأت كل أعماله.

فقال بصوت هادئ، فيه الكثير من الخبث:

- لو أنك فعلت لاكتشفت شغفه بلوحات ميسونيي

- إذا فهو رسام.

- بل واحد من أعظم الرسامين، يكفيه فقط لوحته "نابليون الثالث في سولفيرينو" المحفوظة في اللوفر لترسخ أقدامه في عالم الخالدين.

- ربما، ربما..

قلت ذلك وفي حلقي المرارة التي عادة ما يجدها التلميذ الغبي في فمه ساعة الامتحان، ولكنني سرعان ما أعدت جمع شتات عنادي وقلت لتكون كلمتي هي الأخيرة: "مهما كان هذا الميسونيي، فلن يبلغ في قلب فرنسا بكل روائعه ما قد يبلغه في قلبها أي كلب يعض جزائريا"..

هكذا أنا، حين أحب، أحب بكل تطرف، وحين أكره، أكره بكل تطرف، ومن فرط تطرفي أصبحت لا أسمع إلا صوتي، فأنا في نهاية المطاف نتاج النظام الواحد.

غير أنني في ذلك الخميس حاولت أن أتحرر من مبدأ ألا أجمع بين شارع ديدوش وشارع ميسونيي، فتركت إسماعيل يقنعني بما يشاء، إلا أن كل شيء بدأ بعد هذا الخرق، فبعده بدأت رحلتي

facebook.com/the.Boooks

نحـو الواقـع الـذي كثيرا ما حاولت جدتي يمَّا عيشـة أن تقودني إليه عبـر حكمتهـا التـي ضبطتهـا السـنون، الآن بعد كل مـا مررت عليه، بـدأت أفهـم سـبب تواريَ خلف نبـوءة المرأة العجـوز، بدأت أدرك سـبب انعزالي وفَوْقِيَّتي المبالغ فيها، بدأت أتذكر ما تركته يمرُّ قربي دون أن أمـد يـدي إليـه، وكلمـا تأملـت العالم السـخيف الذي كنت أعيشه تنتابني رغبة في التقيؤ على الشخص الذي كنته، وأحيانا أشعر بالشـفقة على نفسـي، تماما كالشـفقة التي يحس بها المرءُ على نفسه عندمـا يـدرك مـا اقترفه حيـن يهجر زوجته الصالحة من أجل مومس يركبها كل الذكور،

قلت إن كل شيء بدأ في ذلك الخميس حين دخلت وإسماعيل إلى المحافظة السادسة للشرطة بديدوش مراد لأطلب تصريح ضياع بطاقة المكتبة التي كنت قد أضعتها قبل يومين.

ورغم أن الأمر لم يكن عاجلا، إلا أن مرورنا بالمحافظة جعلني أرغب في الانتهاء من هذا الإجراء الغبيّ، ذلك أنني كنت أسـتغرب أن تطلـب مكتبة وطنية- الاشـتراك فيهـا بمقابل- هكذا وثيقة، ولكن هذه حال إدارة جعلت من البيروقراطية سببا لوجودها.

دخلنـا المحافظـة المتواجـدة بأسـفل عمـارة تقع فـي أحد أزقة ديدوش مراد، اعتاد الناس على تسـميتها بـ"السيسـيام" أي السادسـة، ولعلهـا المحافظـة الوحيـدة فـي العالم التي تقع أسـفل عمارة، وهي مثـل آخـر علـى الفوضـى المنظمة التي نتميز بها عن سـوانا من دول وشـعوب، ذلك أن ما يعتبره البوليس نظام وقاية وأمن، ليس بالنسـبة إلينا إلا أعرافا يمكن تجاوزها.

عند مدخل المحافظة، كان يقف شرطي يرتدي زيّا رسميا أزرقا، وكان قد علق على كتفه الأيسـر بندقية من نوع كلاشـنكوف، جعلها

facebook.com/the.Boooks

تلتف خلفه حتى لامست أسفل ظهره، في حين كان يتكلم في هاتف نقّال من نوع نوكيا.

تقدمت نحوه لأعرض عليه عريضتي، فأشار إليّ أن أمهله لحظات حتى ينتهي من حديثه، فلم أجد إلا أن أصمتَ وأنشغل عنه بالحديث مع إسماعيل، إلا أن اللحظات سرعان ما امتدت دقائق، والشرطي ما زال منزويا، منشغلا في حديث لا ينتهي، كان يتكلم بصوت هادئ، خافت كالتمتمة، لقد كان يحدث امرأة على ما يبدو.

وإذ أنا منشغل في الحديث مع إسماعيل، ربت الشرطي على كتفي من خلف، وقال كما يقول الساخر:

- يبدو أنني أطلت عليك حتى بدأت تكلم نفسك.

التفت إليه وفي نفسي شيء من الاستغراب لكلامه السخيف نظرت نحو إسماعيل وفي ظني أنه غضب من تعليق الشرطي، إلا أنه كان كعادته هادئا، وكأنه لم يسمع شيئا. أشار إليّ في غفلة من الشرطي أن أمعن النظر فيه ففعلت، وقد فهمت إيماءته التي كانت تتعلق بشكله، فقد كان قصيرا قصرا ظاهرا، لا يليق بمن كان في مثل بنيته الضخمة، إلا أن ما أدهشني فيه فعلا، هو كيف استطاع رغم قصره أن يلتحق بالشرطة، سؤال ما كنت لأطرحه لو تذكرت حين حاولت المشاركة في مسابقة الضباط ولم أستدع حتى، ليس لأنني افتقدت لشرط من شروط الالتحاق، بل لأنّني لم أملك واسطة تيسّر الأمر عليّ.

- ماذا تريد بالضبط؟.

قال الشرطي يستعجلني، بعد أن استعاد هيبته التي كان قد تنازل عنها قبل حين وهو يتكلم في الهاتف. فجعلته يتبعني وأنا أهمّ بدخول قاعة الاستقبال، فأمسكني من ساعدي كما يمسك صاحب

facebook.com/the.Boooks

الدار بسارق يحاول اقتحام داره عليه. كل ذلك دون أن يعير اهتماما بإسماعيل الذي كان برفقتي.

- إلى أين؟. "قال يخاطبني" ثم أردف:

- هذه ليست دار أمك.

أعترف أنني رغبت في أن أقول له أنها ليست دار أمه أيضا، ولكنني كنت مدركا ألا طائل من هكذا ملاسنة، فكتمت غيظي وقلت:

- أريد الإبلاغ عن بطاقة فقدتها.

- طيِّب..

قال وكانت يده قد أفلتت ساعدي.

- عد يوم السبت، فقد نفذت منا الاستمارات.

كنت أعلم أن هذه واحدة من أقدم حيل الشرطة لتجنب العمل، فألححت عليه بشيء من الغضب، فقام يدفعني محاولا طردي وأنا ثابت على مطلبي ألح عليه، ولما يئس مني، طلب مني الجلوس، بعد أن أخذ بطاقة هويتي وانصرف، وما هي إلا دقائق حتى عاد وسألني عن اسميْ أبي وأمي فأجبته، ثم طلب مني الخروج من قاعة الاستقبال والوقوف في رواق داخلي يقع بين قاعة الاستقبال والمكاتب الداخلية. ففعلت ولم أمتنع.

وإذ ذاك، باغتني إسماعيل بملاحظة غفلت عنها:

- أنت تدرك أن ملأ التصريح بالضياع لا يحتاج إلى كل هذه الجبلة؟

facebook.com/the.Boooks

قلت بمرارة المستغفَل:

- نعم، ولكن ماذا بعد؟

فابتسم وقد صمت قليلا قبل أن يضيف:

- غالبا عندما تسأل الشرطة عن اسميْ والديْ أي شخص، يكون ذلك للتأكد من شخصه.

- لا بأس في ذلك.

قلتُ وقد بدأت أدرك ما يحاول إسماعيل إيصاله لي.

- أقصد أن الشرطة لا تفعل ذلك إلا إذا كان الشخص موضع شبهة.

- أي شبهة يا غبي في أستاذ جامعي، أصمت رحمك الله.

فلم يجد أمام ما أبديته من خوف وغضب إلا أن صمت.

حين طال بي المقام، نفذت سجائري، فطلبت من إسماعيل أن يحضر لي علبة سجائر بعد أن منعتُ من الخروج إلى حين، فرفض كعادته وقال مبررا:

- تعلم أنني لا أشتري مثل هذه الأشياء

والحق، إنني كنت أعلم أنه سيرفض، فقد كان يعتبر السجائر حراما كالخمر، ورغم ما كان بيننا من عشرة، ما كان ليتنازل عن معتقداته في سبيل صداقتنا، غير أنني هذه المرة أَمِلْت أن يرأف لحالي وقد شاهد بأم عينيه كيف عوملت، ولكنه رفض ولم يُعر غضبي عليه بالا.

في الرواق حيث كنت أنتظر عودة الشرطي الذي أخذ مني بطاقة هويتي، كان هناك شابان في منتصف العشرينات، يقفان وقد أسندا

facebook.com/the.Boooks

ظهريهما الحائط، وكانا فيما يبدو على هذه الحالة منذ ساعات.

كانا مقيدين من يد واحدة إلى عمود حديدي مثبت في الحائط، بشكل امتنع عنهما الجلوس، في حين تُركت اليد الأخرى حرة بلا قيد. كانا من فرط تعبهما يحاولان الجلوس بأي وسيلة، دون أن يقدرا على ذلك فعلا. وإذ هما يحاولان، اهتديا إلى وسيلة غريبة تسمح لأحدهما بالجلوس دون الآخر، فكان أحدهما يقف مسندا ظهره الحائط، ثم ينزل بجسمه، بعد أن يكون قد ثنى ركبتيه، إلى أن تلامس كتفه فخذ صاحبه، فيقوم هذا بوضع قدما عليها، وحين ذاك تكون قدمه الأخرى قد بلغت مستوى القضيب الحديدي المقيدين إليه، فيجلس عليه، في حين يعود صاحبه إلى وضعه الأول، فإذا استراح الأول قليلا، قام وساعد صديقه ليفعل مثله.

كان ينظران إليّ ويتهامسان خوفا من أن أفهم شيئا مما يدور بينهما، أما أنا فكنت أختلس النظرات إليهما، بعد أن أدركت أنني صرت موضوع حديثهما.

همست إلى إسماعيل:

- هل تعتقد أنهما يتحدثان عنا؟

- تقصد أنهما يتحدثان عنك

- مثلما تحب، إنهما يتحدثان عني..

قلت ذلك بصوت عال، فضحه غضبي منه، فرأيت الشابين ينظران إليّ، وهما بالكاد يمنعان الضحك أن يقتحم أذنيّ، ولكن عيناهما كشفتا ما كانا يجهدان في إخفائه، وإذ ذاك تملص أحدهما من الهمس والضحك وقال:

facebook.com/the.Boooks

- لا عليك، يفعل الحبس أكثر من ذلك.

ثم تملكه الضحك فحاول إلجامه دون جدوى، في حين انفجر صاحبه ضحكا وهو يقول:

- إذا شئت، يمكنك أن تكلمنا.

وقطع الضحك جملته من جديد، ثم سرعان ما تمالك نفسه وأضاف:

- يمكنك ذلك بالتأكيد، فجميعنا مجانين.

ثم انقطعا للضحك وأنا مشدوه أمام تصرفاتهما، ومن فرط انشغالي بهما لم ألاحظ أن إسماعيل خرج من الرواق إلى قاعة الاستقبال.

هكذا وجدتُني وحيدا في الرواق، لا أفعل شيئا إلا استراق السمع إلى حديث الشابين. أحدهما كان في منتصف العقد الثالث، بدا أنه من منطقة القبائل بسبب لكنته التي كانت تفرض نفسها في حديثه، رغم ما بذله من جهد لإخفائها بمصطلحات عاصمية، إذ كانت تفضحه بين الكلمة والكلمة. كان يرتدي بذلة رياضية بيضاء من النوع الرخيص، وحذاء "ترينينغ" من قماش بنفس اللون، يضع خاتما فضيا يزينه حجر أسود في بنصره الأيسر، وسلسلة يد مذهبة بمعصمه الأيمن، كان يظهر من جسمه المفتول أنه يمارس رياضة ما، على عكس صاحبه الذي كان هيكلا عظميا يتحرك، يرتدي سروالا من اللان الأبيض المائل للصفرة، وقميصا من الجينز الأزرق الحائل، وكانت رائحة الكيف تصدر منه، رغم ما بذله من جهد لإخفائها

facebook.com/the.Boooks

بتعمده التدخين دون توقف.

كان صاحب اللكنة القبائلية يحدث صاحبه بنرفزة وغضب ظاهرين. لقد كان يلومه على ما هما فيه من محنة، في حين بدا الآخر غير آبه البتة بحديثه، وهو في حالة استرخاء غريبة أو مبالغ فيها.

وما هي إلا دقائق حتى توقفت عن استراق السمع، فقد عاد الشرطي الذي أخذ بطاقة هويتي ملوّحًا لي بقيد كان يحمله بيده اليمنى:

- مدَّ إلي يديك، فأنت مطلوب.

قال ذلك بصوت جمع بين الحزم والسعادة.

صعقت حين سماعي "أنت مطلوب"، ارتبكت قليلا، حتى أنني حاولت مقاومته، وكأنني كنت آمل أن تحدث مقاومتي فرقا، لكنْ لا صراخي ولا استجدائي ردّا قضاء ذلك الشرطي، وعوض أن يشرح لي الأمر، ركلني بقدمه فسقطت أرضا، ثم وضع في يدي القيد وجعل طرفه الآخر في القضيب الحديدي المثبت بالجدار، وهو يتمتم ويصرخ، فوجدتني بجانب الشابين مكبّلا مثلهما.

بقيت لفترة مصدوما لما حدث والشابان يحاولان مواساتي دون جدوى، فلم يكن لأمر أن يواسيني إلا أن أرى إسماعيل، غير أنه اختفى بكل بساطة، تماما ككل الأصدقاء الذين حاولت، دون جدوى، إبقاءهم في عالمي منذ طفولتي، جميعهم اختفوا هكذا، بكل بساطة، ربما لهذا لم أتفاجأ لاختفائه، فلم تعد الأشياء المؤلمة تؤلمني كما في السابق، تماما كالأشياء السعيدة لم تعد تعني ما كانت تعنيه في بداية رحلتي في الحياة، عندما كان العالم مختصرا في وجه يمَّا عيشة وهي تحاول ترتيب هندامي كل صباح قبل توجهي إلى المدرسة.

- ماذا فعلت؟

facebook.com/the.Boooks

سألني الشاب المسطول، عارضا عليّ ابتسامة لم تكن تعني لي أكثر من تمدد عضلات وجه دون ملامح، بدا لي كجسد بلا روح، مجردا من كل إحساس، عدا الرغبة المتزايدة في "الكيف"، تحترق حياته أمامه مع كل سيجارة يشعلها، تتطاير أحلامه مع الدخان المنبعث من فم تتوزع في داخله أسنان صفراء أنهكها التدخين المستمر وكأنها ردم ما تبقى من حضارة لم تكن حتى..

هكذا بدا سؤاله مجرد محاولة يائسة لبداية حديث ما، أو رغبة في كسر حصار اللوم الذي أطبقه عليه صاحبه، إلا أنني شعرت بضرورة الإجابة، وأنا أرى تساوينا بعد أن جمعنا هذا المكان القذر وهذه القيود ووقفة الإذلال التي فرضت علينا، ولكن الذي ساوانا أكثر، نظرات رجال الشرطة الذين كانوا يرمقوننا بها حين يمرون قربنا بين الحين والحين.

- لا أعلم بالضبط.

قلت ذلك دون أن أدرك أنها إجابة ستثير فيه الضحك وهو يقول ساخرا:

- مثلي تماما. أليس كذلك "موجها تعليقه إلى صاحبه"

لم أجد طريقة للتملص من الموقف إلا بابتسامة كثيرا ما كنت ألجأ إليها في مثل هذه المواقف، مواقف لا تتسم بأي رغبة في الاستمرار. ربما أخذتُ هذا من مدام موفق مدرسة اللغة الفرنسية في الابتدائي، كانت كلما أرادت قطع دابر أي حديث ممل أو خارج عن اللباقة تمدد وجهها بطريقة ترسم عليه ابتسامة لا معنى لها، وكأنها تقول "كفاكم كلاما"، ولكن أنّى لمثل هذين أن يفهما هكذا إيماءة؟!.

تدخل الشاب ذو اللكنة القبائلية قائلا:

facebook.com/the.Boooks

- لا يهم، فجميعنا في "سلة" واحدة.

تخيلت هذه السلة التي وضعنا جميعنا فيها، فنظرت حواليَّ، ربما لأفهم منطق القدر الذي جمعني بهذين، وما هي إلا لحظات حتى اكتشفت أن هذه السلة ليست ما اتهمنا ثلاثتنا باقترافه، إنما النظرات التي يجلدنا بها رجال الشرطة كلما مرّوا بالرواق، جميعنا واحد بالنسبة إليهم، مجرد حثالة، قذارة يجب التخلص منها.

مع كل نظرة كنت أشعر برغبة عارمة في الانتهاء، شعور غريب يعتريك وأنت ترى ما تبقّى من كرامتك يهان بنظرة حاقدة من رجل يجهل كل شيء عنك، هل تراه يفهم ما تعنيه الرحمة وهو ينظر إلى مثلي بنظرة كهذه؟!

قررت ساعتها أن أتناسى كرامتي، إنسانيتي وحتى مبادئي التي أدخلتني هذا المكان، قرَّرت أن أستسلم للحظة، مثل هذين المكبَّلين بجواري، قرَّرت أن أكون للحظة مثلهما، مجرد محبوس، جسد بلا روح.

فجأة همست لي تخيلاتي باقتراح غريب "ماذا إذا بادلتهما الحديث؟".

- وأنتما ما تهمتكما؟

سألتهما قبل أن أفكر حتى في السؤال، فقد بدأت أخرج مني عليَّ، فلم يكن من عادتي أن أقول شيئا قبل أن أطيل التفكير فيه، حتى أن إسماعيل كان كلما أبطأت في الرد عليه يقول لي مازحا: "هذا ليس امتحانا، أريد رأيك فقط، أحيانا أشعر وأنت تجيبني أنك ستؤلف كتابا"، أما الآن فلا سبيل للتفكير ولا للتمعن، فقد قررت أن أتنازل، أن أكون مثل هذين بجانبي.

facebook.com/the.Boooks

- قضية مخدرات.

أجابني الشاب صاحب اللكنة القبائلية، ودون استئذان استرسل في الكلام، ربما اعتقد أنه يهمني في شيء، المسكين لم يكن يعلم أن ما نلوكه من حديث لن يكون على أوفر تقدير أكثر من مجرد طريقة لقتل الوقت.. هل صدَّق حقا أننا في سلة واحدة؟!، ربما.. لا يهم.

بسبب هذا الغبي.. قلت له أن علينا نتفادى معبر أول ماي ونقصد محطة الحافلات عن طريق التافورة، إلا أنه أقنعني بغير ذلك.

قال ذلك وقد فقد السيطرة على نفسه بحيث تحول حديثه إلى صراخ يُسمع من آخر الرواق، وما هي إلا لحظات حتى قدم شرطي مكرّش، وضربه على قفاه آمرا إياه أن يسكت.

"- بلَّع ولاَّ تعرف واش اندير لك".

فجأة، تحول الشاب ذو اللكنة القبائلية إلى شابٍّ خجول محمرِّ الوجه، وفجأة اختفت بسمات صاحبه التي كان يوزعها بمناسبة وبغير مناسبة. هكذا بدت الجرأة والرجلة وحتى الجبروت مجرد لحظات آفلة، مجرد ومضات، تظهر بهدف الاختفاء، لم يكن هذان الشابان الأحمقان، ولا هذا الشرطي المكرّش بكل ما لديهم من رجلة، إلا صورا مصغرة للحقرة، انقرضت الرجلة التي كثيرا ما كان خالي سيدي احمد بن يونس يحكي لي عنها في صغري، والتي كنت بدوري أتلذذ بالقراءة عنها في كتابات نجيب محفوظ.. رجلة تترجم كل معاني الأنفة، الكرامة، المروءة، الشجاعة، والأهم تعني كل ما يحفظ للإنسان إنسانيته،.

الآن أصبحت الرجلة مرادفا للحقرة، الحيوانية، وربما، أحيانا.. الذكورة لا غير.

facebook.com/the.Boooks

ترك مشهد الشرطي المكرَّش أثرا في نفسي، فقد كان في طوله يشبه إنسان "نياندرتال"، ولكنه كان أكثر بدانة، فقد خُيِّل إلي وهو يدخل الرواق أن بطنه العظيمة وصلت إلى حيث كنّا، قبل أن تفارق قدماه عتبة قاعة الاستقبال، في حين كانت جبهته عريضة كسبورة سمراء، رسم الزمن عليها أخاديد لم تزده إلا قبحا يضاف إلى قبح وجه مستدير، مفرط في الدهن، يتوسطه أنف عريض يرقد على شارب، أضربت عنه الشفرات، فكان نسيا منسيا.

لحظات من الصمت ملأت فراغات الحديث، حتى قطعها الشاب المسطول بقهقهات لا معنى لها، ليعود صوت المكرّش من آخر الرواق "بلعوا (أصمتوا) يا كلاب"، عاودني حينها الشعور بالإهانة، وأنا أرى المسطول يبتسم وكأنه غاية في السعادة، ربما يحب، دونما شعور، أن يشتم ويحتقر، لا ريب في ذلك، فهذا المخلوق الذي لم يتوان في دفع المكرَّش إلى سبه يحب هكذا مواقف.

وبين تلاسن المكرَّش والشابين المقيدين، نظرت إلى ساعة يدي لأعرف الوقت، فأدركت أنها توقفت، فحاولت جاهدا البحث عن ساعة حائطية على جداري الرواق، وأنا أرغم نفسي على الوقوف على رجلي اليمنى، فقد كنت أحاول إراحة ساقي الأيسر التي استشرى فيه مرض الدوالي حتى بلغ ما فوق الركبة، كان الألم لا يطاق، وكان لا بد لي أن أجد طريقة لإراحة ساقي، لكن الرغبة في معرفة الوقت كانت أكثر استعجالا، وكأنني كنت على موعد ما.

مسحت بناظريّ جدران الرواق الذي كنا في وسطه، كانت جدرانا متَّسخة، متآكلة وفارغة من كل ما يوحي بأننا في مكان يزعم أنه يخدم الشعب، حتى صور الرسميين أو شعار "الشرطة في خدمة المواطن" لم تكن تزيّنها، ولولا وجود سبورة علقت عليها صور وأسماء بعض

facebook.com/the.Boooks

الإرهابيين، لأصبح المكان كأي مكان، أو كـ "لا مكان" على حد تعبير إسماعيل، مجرد بناية بلا معنى، بلا روح كأصحابها.. بناية خارج الزمن أيضا.

هكذا أرادوها أن تكون كذلك، هؤلاء الجالسون على قممهم، هناك، على كراسيهم الفخمة وأرائكهم المريشة، هؤلاء الذين يرسمون حيوات أمثالنا من الأقزام القادمين ليذهبوا، يلعبون بمصائرنا على لوحة شطرنج بيادقها مصنوعة من عظامنا، آلهة بكل ما يعنيه لنا وهم التألّه وبكل ما لا يعنيه لهم حلم الحرية، ومثل ما كان لليونان آلهة لكل شيء، لنا نحن أيضا آلهة لكل شيء، للحديد، للسكر، للماء، للزيت، وحتى للموت، هكذا أرادونا وهكذا، ربما، نحب أن نكون، مجرد أقزام تنتظر قرارهم، قضاءهم، قدرهم.

أنا أيضا كنت أنتظر عودة الشرطي المكرّش لأسأله كرسيا أجلس عليه، فقد أنهكني التعب بعد ساعات من الوقوف، وبدأت أسمع نبضاتي وكأنها قرع طبول، ثم شعرت كأن لوني شحب فلم يعد الوقوف سهلا كما كان يجدر به.

"لا بد أن ساعات مرَّت على وجودي هنا"

قلت لنفسي، دون أن أتفطن أن زميليّ في القيد يملكان هاتفا نقالا، وكأن عدوى الحمق انتقلت إليَّ منهما، ولولا رنين الهاتف الذي حاول الشاب ذو اللكنة القبائلية خنقها خوفا من أن يصادره الشرطي المكرَّش، لما تفطنت إليه.

بعد أن تخيَّرت الوقت سألته بصوت أقرب إلى الهمس منه إلى سواه عن الساعة، فأخبرني بصوت غارق في هدوء تخالجه نرفزة حاول إخفاءها:

facebook.com/the.Boooks

- التاسعة والنصف.

هكذا مضت ست ساعات منذ دخولي إلى هنا، جئت بمحض إرادتي، وبقيت رغما عني.

وبغير مناسبة تذكرت إسماعيل، أتراه ما زال ينتظر؟. بدا السؤال سخيفا وربما غاية في السخافة، كيف له أن ينتظر كلَّ هذا الوقت، وهو الذي لا ينتظر حتى غانيته ولو في ليلة شوق ووحدة.

ورغم سخافة سؤالي وبداهة الإجابة، تمنّيت أن يعود ويدخل الرواق مبتسما، ليخبرني أن كل شيء مزحة سخيفة؛ نعم ولكنها مزحة، لكنني سرعان ما عدت إلى واقعي: شابان أحمقان مقيَّدان إلى جانبي، رواق بارد تملؤه الظلمة والرائحة النتنة، شرطي مكرَّش لا شيء يستهويه أكثر من الألفاظ البذيئة، حتى خيِّل إليَّ أن في فمه مرحاضا لم تغطَّ فوهته بعد أن ملئت غوطا.. قيد يعصر معصمي، مرض الدوالي، والأهم من كل ذلك، ست ساعات من الإذلال.

أخيرا عاد الشرطي المكرَّش تتبعه امرأة في العقد الرابع سمراء، نحيلة نحولا لم يذهب بجمالها، متوسطة الطول، بشعر قصَّته "ألاجرصون"، كانت خلفه تسير بميوعة مبالغ فيها، أما هو فقد أبدى ما استطاع إبداءه من جبروت وخشونة، تليق ببذلته الزرقاء، أو هكذا كان يظنها تليق. في حين كان الشرطي الذي حجز بطاقة هويتي أول الأمر يسير خلفها.

لوَّحت له بيدي المتحررة من القيد، فتوقف لحظة أمامي، وهو يرمقني بنظرة تكاد تقول "ماذا تريد؟"، في الغالب كانت تلك طريقته لإبداء الاهتمام، ثم انتصب قدَّامي بطريقة أوحت أنه مستعجل للَّحاق بصديقه المكرَّش والمرأة السمراء.

- من فضلك، هل يمكنك أن تطلب لي كرسيا لأجلس عليه؟

facebook.com/the.Boooks

قلـت ذلـك بنبـرة أقرب من التذلل منهـا إلى الطلب، ولا ضير، فحتـى العمالقـة تتضـاءل أحجامهـم لحظة الانحنـاء، ورغم ذلك فقد كان لا بد من القليل من التنازلات، تماما مثلما رضيت منذ حين أن أحادث زميليّ في القيد.

- ليس لأمثالك أن يطلبوا شيئا.

أجابني وقد امتلأت عيناه احتقارا وغضبا.

لأمثالـك، هكـذا قـال، وقـد جهد في جحظ عينيـه دون أن يبلغ منـي مـا أراده فـي تخويفي، لم يكن المسـكين ليعلم أنني نشـأت في منـزل صـراخ، حتـى اعتقـدت فـي وقت ما أنه الأسـلوب الوحيد في المخاطبة، وأحسـب أنه بقي محدِّقا فيَّ لحظة أو لحظتين، ربما كان يأمـل أن يحصـل شـيء مـا غيـر هذا الهدوء الـذي لحظه في وجهي، وربما فعل ذلك انتقاما مني أو انتقاما له، ثم ما لبث أن أضاف بنبرة فيها الكثير من الاحتقار:

- حين تبلغ السجن، سنمنحك كل الوقت لتستريح.

ابتسـمت لحظتها. لم يكن لابتسـامتي أي معنى غير رغبتي في أن يتوقف عن محادثتي، فقد شـعرت أنني منحته أكثر من قدره، ثم انصرف وهو يتمتم "ما خصْ غير ندوكم اللوتال تانيك".

إلا أنني سـرعان ما ندمت على ابتسـامتي تلك، وأنا ألحظ قفا الشرطي يبتعد حتى بلغ الغرفة في آخر الرواق المظلم، ليدفع الباب بيـده اليمنـى ويختفـي داخلهـا دون أن يهتـم بغلق البـاب. ولأنني لم أكن راغبا في أن يتملَّكني ألم ساقيَّ، وربما كنت أحاول، أن أتناسى ملمـس الحديـد حـول معصمـي، أخـذت أنظـر في جهـة الغرفة آخر الرواق، فقد كنت آمل أن يعاود الشرطي الخروج وأسأله مرة أخرى كرسيا أجلس عليه.

facebook.com/the.Boooks

غريبة رغباتنا، قبل ست ساعات كانت أحلامي كحبات الرمل لا تنتهي، وها أنا الآن أوجزها في رغبة واحدة، بسيطة، تافهة، مجرد كرسي لا يهم شكله ولا حتى نوعه.. لا يهم إن كان وسخا أو نظيفا، فقد كنت سأكتفي بصفيحة زيت فارغة أجلس عليها. تواضعت أحلامي لتصبح حلما كهذا: مجرد كرسي لا غير.

لم تمر دقائق حتى خرج الشرطي من الغرفة ممسكا بورقة نقدية بمائتي دينار، وإذ كان يهم بالمغادرة استوقفه صوت المكرش يخترق رواقنا:

- أحضر لها علبة سجائر وشيئا للأكل.

ثم تدارك موجها كلامه - فيما بدا - إلى المرأة، ولكن بنبرة غير تلك التي ألفناها فيه:

- ربما تريدين شيئا آخر؟

- ماء، قارورة ماء معدني من فضلك.

- طيّب، أحضر لها شيئا تأكله وقارورة ماء ولا تنسى علبة السجائر.

وماكاد يُنهي جملته حتى انطلق الشرطي مسرعا.

أثناء ذلك كان زميلايّ في القيد يضعان الخطط بهدف توحيد موقفهما فيما يخص ما سيقولانه في محضر الشرطة، فاتفقا أن ينكرا كلَّ الأحداث جملة وتفصيلا، خاصة وأنهما كانا قد تخلصا من الكيف الذي كان بحوزتهما قبل إلقاء القبض عليهما، في حين كنت قد انزويت إلى نفسي مركِّزا نظري إلى الغرفة آخر الرواق، وكنت بين الحين والحين أسترق كلمة أو كلمتين تتسللان إلى أذنيَّ عبر شقِّ الباب.

facebook.com/the.Boooks

"لا بد وأن الوضع حميمي في الداخل"،

قلت لنفسي، وقد تصوّرتُ أن الشرطي المكرَّش على معرفة وثيقة بالمرأة السمراء، وإلا فما الذي يجعله مهتما بجوعها وعطشها، إلى حد أن يطلب لها طعاما وشرابا، كان هذا تحليلي الأوّلي للموقف، لهذا فقد استلذذت الأمر إلى درجة أن رغبت بشدة في معرفة ما يحدث في الداخل، لكن الكلمات المتسللة من شق الباب سرعان ما توقفت، ليعاودني الشعور بالوحدة من جديد، فقد كان الموقف مسلِّيًا لي؛ ولعله أنساني بعض الشيء ألم ساقي وملمس الحديد البارد حول معصمي.

بقيت دقائق لا أفكر في شيء، ربما لأن التعب بدأ يستشري في جسدي وروحي معا، ولولا الرغبة في تدخين سيجارة بدأت تعتريني، لفقدت الإحساس بالمكان والزمان معا، كانت رغبتي في تدخين سيجارة تتزايد مع كل ما كان يخرج من دخان عبر شق الباب،

فجأة شعرت بيد ناعمة على كتفي، فاستدرت وإذا به الشرطي الذي أخذ بطاقة هويتي:

- خذ.

قال ذلك وهو يعطيني سيجارتين اقتطعهما من العلبة التي ابتاعها للمرأة السمراء، ثم أعطى صاحبيَّ مثلهما واتجه مباشرة نحو الغرفة في آخر الرواق؛ وطرق الباب رغم أنه لم يكن مغلقا، وإذا بصوت المكرّش يخرج من داخلها وقد عادت إليه " هيبته" التي فقدها وهو يحدِّث المرأة السمراء منذ حين، فبدا وكأنه استزاد خشونة وجفافا.

- انتظر

بقي الشرطي صاحب المكرَّش مسمَّرا في مكانه، حتى أذن

facebook.com/the.Boooks

له، قلت لنفسي، ما الذي جعل المكرَّش يستبطئ صاحبه على هذا النحو؟. وفجأة عاودتني شياطيني، وصوَّرت للمكرش وسمرائه فيلما غارقا في البذاءة، وبقيت هكذا أسبح في أوهامي الإيروتيكية، بعد أن حكمت عليهما دون استئناف.

في حوالي العاشرة، دعاني المكرَّش إلى الغرفة في آخر الرواق، بعد أن سبقني إليها صاحباي ليأخذ أقوالي، في حين سيقت المرأة السمراء إلى مكتب آخر.

كانت الغرفة مترين على مترين، في نهايتها مكتب حديدي وكرسيان، واحد للمكتب والآخر للمستجوبين، عليه آلة رقن حديدية كتلك التي اعتدنا مشاهدتها في أفلام الأبيض والأسود، في حين كان لون الجدران خافتا، بسبب الطلاء الرخيص المطلية به، يتوسط السقف مصباح يبصق نورا باهتا آيلا للانطفاء، وكأنَّ الغبار الموزع على محيطه آثر أن يختص بضوئه دون الجالسين في الغرفة.

جلس الشرطي خلف المكتب بعد أن كان قد غادره ليحل قيدي، مشيرا إليّ بيده "أن اجلس"، وما هي إلا لحظات حتى بدأ في الرقن دون أن ينظر صوبي، وكان بين الحين والحين، يسألني عن اسمي، اسم والدي، مهنتي و..، أما أنا فقد كنت لا أفعل شيئا غير التلذذ والاستمتاع بالجلوس.

facebook.com/the.Boooks

- 2 -

بمجرد أن انتهى المُكرَّش من الرقن، سلَّمني رزمة من الأوراق بيضاء مائلة للصفرة، تشبه في ظاهرها أوراق الجرائد ولكنها أكثر رداءة، ثم قام من كرسيِّه وهو يدخل قميصه الأزرق تحت سرواله بعد أن تمرد على حزامه الأسود بسبب ضغط بطنه الكبير عليه، وما لبث أن استوى ثانية على كرسيه دافعا به وبجثته المهترئة الضخمة نحو المكتب، ليحول بطنه الكبير بينه وبين حافة المكتب الحديدي الصدئ.

– وقِّع، ثم ابصم هنا!

قال المكرّش وهو يشير أسفل آخر ورقة من رزمة أوراق بدت لي أنها كانت على ثلاث نسخ. أخذتها وحاولت استبيان ما فيها، وما كدت أفعل حتى كدَّر صوت المكرّش صفاء تركيزي، فرفعت رأسي وإذ به يسحب الرزمة من بين يديّ حتى خلتها تمزقت، وكان قد انحنى نحوي بعد أن رفع بعضه عن كرسيه دون أن يستوي قائما، فانضغط بطنه الكبير على حافة المكتب، ليبدو كبالون هواء شُدّ وسطه، بحيث استقر بعضه على وجه المكتب واستتر الباقي تحته. كان يصرخ فيَّ والبصاق يتطاير من فمه وقد كشفت شفتاه المنفرجتان ما كانت لثته السفلى تخفيه من تبغ بعد أن تسرَّب من اللفافة الموضوع فيها، حتى اصطبغت بلون طيني قذر.

– ماذا تفعل؟!، وقِّع فحسب.

قال ذلك، وهو يحلق فيّ بعينين جاحظتين، زادهما غضبه

facebook.com/the.Boooks

اتساعا، فكان بوجهه المستدير الأسمر المكتنز دهنا وشحما، وشكل جسـمه غير المتجانس، يجسـد الدليل القاطع أن أصل الإنسـان يعود إلى القردة.

"لقد كان مسخا سخيفا إلى درجة أنه لو عاصر الجاحظ ورآه، لعمل الجاحظ عارض أزياء"(

أدهشه هدوئي وأنا أحدِّق فيه بوجه دون ملامح.

أعترف أن بعض الخوف استشرى في جسدي رعشة؛ تجمَّدت كتلـة فـي بطنـي، وكان حريّـا بـي أن أخاف، إلا أنني ضبطت مشـاعر الخـوف تلـك مثلمـا كنت أفعل في طفولتي، وأنا أشـاهد أبي يضرب أمي ضربا مبرِّحا بعد أن يكون قد كسر كل ما هو قابل للتكسير في البيت.

كانت حينذاك مشاعر الخوف تسكنني، ولعلها كانت تتدفق دما في عروقي لتتجمع وسـط بطني مثلما تفعل الآن، لكنني كنت أملك القوة لأجعلها تستقر هناك، بعيدا عن مفاصلي، عن وجهي، وعن عينيَّ أيضـا. كنـت أتظاهـر أن أمرهـا لا يعنيني.. "رجـل يضرب زوجته، لا غرابة في الأمر". بهذا كانت تطمئنني يمَّا عيشة سنوات طفولتي، أما أمي فلم تكن تأبه لضرب أبي، ربما لأنها من كثرة ما ألفته أصبح لا يثير فيها أي ألم، ولولا منظر الدموع المنهمرة من عينيها بين الحين والآخر كلما خلت بنفسها لما استشعرتُ حزنها.

في لحظاتها تلك كانت تحب أن تجلسني على حجرها وتضمني إليها ثم تبدأ في الغناء لي. اليوم لا أذكر من هذه الأغنية إلا لحنها، ولكثـرة مـا أسـمعتنه حفظتـه، ليتحـول مع السـنين أنيسـي في أوقات وحدتي.

ربما من منظرها صامدة لِلَكمات والدي، لا تأبه، وأبي يستشيط

facebook.com/the.Boooks

غيضا، استمديت قوتي لحظات الخوف، ربما بفضلها أصبحتُ لا أُظهر خوفي أو فزعي لمن يحاول أن يزرعهما فيَّ، وكان هذا بلا ريب ما جعلني أصمد في هذا المكان القذر، وأتحمل بذاءة المكرَّش وهو يحاول الضغط عليَّ لأوقِّع المحضر دون قراءته.

حين تيقن المكرّش من عنادي وإصراري على قراءة المحضر، مزقه وألقى به في سلة بلاستيكية كانت بجوار قدمه الأيسر، ثم قام وقيَّدني إلى كرسيّ، وعاد يرقن من جديد.

لدى انتهائه قرأت المحضر بروية ثم وقعتُ عليه، ليعيدني المكرّش إلى حيث كان زميليّ في القيد، وبقيت على هذه الحالة حتى الواحدة صباحا، حيث اقتِدت وصاحبيّ إلى مستشفى مصطفى باشا، ليتمّ فحصنا. هكذا وصفوا جلسة الأسئلة والأجوبة التي خضعنا لها هناك

تم الأمر بسرعة فائقة، فحين توقفت سيارة التوتا التي استقلناها إلى هناك، سارع السائق إلى الخروج منها، ودخل مصلحة الاستعجالات، في حين بقينا وشرطي آخر داخل السيارة ننتظر عودته، وما هي إلا لحظات حتى عاد ولوّح إلى زميله، فقام الأخير بإخراجنا من السيارة، وكنا إذ ذاك جالسين في المقاعد الخلفية، وقد تم تقييد صاحبيّ في القيد ببعضهما، في حين كنت أنا مقيّد اليدين.

خرجنا والشرطي السائق يسبقنا، في حين كان زميله يسير خلقنا، فدخلنا إلى مصلحة الاستعجالات، وكانت ساعتها مكتظة عن آخرها، حتى أن الشرطي السائق كان يدفع الناس دفعا ليفتح لنا الطريق، أما زميليّ في القيد فكانا لا يملان من بصق تعاليق سخيفة يحاولان بها

facebook.com/the.Boooks

تجاهل وضعنا المذلّ. في لحظة سحرية تناسى المرضى فيها أمراضهم وآلامهم، ليصرفوا نظراتهم نحونا، ونحن نشق طريقنا بينهم مقيدين.

كانت نظراتهم أثقل وطأة من نظرات رجال الشـرطة منذ حين، ربما على خلافها لم تكن نظرات احتقار، فقد كانت تجمع بين شفقة تميزنا وخوف لطالما لازم حياتنا، لذلك كانت أكثر وطأة.

دخلنـا إلـى صالـة الفحـص، وهي قاعـة لا تزيد عن سـتة أمتار مربعة، تكاد تخلو من كل أثاث، باستثناء مكتب خشبي وكرسي طبي من النوع الذي يطوى ويفتح، عليه ملاءات خضراء تفوح منها رائحة الكحول، جُعلت فوق بعضها، لتكوّن ما يشبه الفراش.

وعلى خلاف ما يفترض في قاعات العلاج، فلم يكن بهذه القاعة خزانـة ولا حتـى رف توضـع فيـه لوازم العـلاج، ولكنها في المقابل، كانـت تعـج بالأطبـاء المتدربيـن ممن لا خبرة لهم فـي العلاج، دون أن يكون معهم طبيب مدرِّب.

حيـن دخلنـا لـم نجد فـي القاعة أحـدا، رغم العـدد الهائل من المنتظريـن خارجهـا، والأرجـح أن الشـرطي الـذي سـبقنا منذ حين، كان قد أمر أن تخلى قاعة العلاج حتى يتم فحصنا، وهو إجراء أمان تعمل به الشرطة ويعلم به الأطباء.

وفي سرعة البرق تم فحص ثلاثتنا، حيث كان الواحد منا يجلس علـى الكرسـي المتحـرك، فيقـوم الطبيب بسـؤاله عـن صحته وتاريخ عائلته الصحي، فإذا فرغ منه يجلس سواه ويفعل معه مثل ما فعل ما سابقه، لهذا انتهينا من الفحص بسرعة البرق.

facebook.com/the.Boooks

عدنـا إلـى المحافظـة ومكثنـا بها قرابـة نصف السـاعة، قبل أن يتقرّر ترحيلنا إلى "الكافينياك"، محافظة شـرطة أخرى تقع في شـارع الأرجنتيـن، علـى بعد خمسـين مترا عن حديقـة صوفيا، على الطريق المقابل للبريد المركزي في العاصمة في اتجاه ساحة الشهداء.

وكنـت قبـل هـذا اليـوم أسـمع عن محافظـة الكافينيـاك، وكنت على علم أنها تقع في مكان ما بين البريد المركزي وساحة الشهداء، ولكنني لم أكن أعلم أنها في موقعها الذي أشرت إليه.

كانت الكافينياك المكان الذي ينقل إليه الموقوفون لاحتوائه على مرقد، أقصد أن في هذه المحافظة زنزانات تسـمح بحبس المتهمين إلـى حيـن محاكمتهـم، وهي واحدة من أقـدم المحافظات العاصمية، أخذت اسمها من سفاح فرنسي يعرف بالجنرال كافينياك، وهو واحد من أكثر الجنرالات الفرنسيين دموية وشهرة في تاريخ الجزائر، وسبب شهرته أنه قام في عام 1844 بإبادة قبيلة كاملة تسمى بني صبيح، حيث قام بمطاردة أفرادها، حتى اضطرهم إلى اللجوء إلى مغارة فدخلوها، فحاصرها وأمر جنوده بإضرام النار فيها حتى أباد معظمهم، وبعد عام قـام بمطـاردة الناجيـن منهم حتى ألقى القبض عليهم، ثم جمعهم في مغارة أخرى وأضرم فيهم النار حتى احترقوا جميعا.

كانـت هـذه نظرتـه للعدالة والنظام، وربما لهـذا اخترنا أن نبقي اسمه على واحدة من أهم محافظاتنا!!

حيـن بلغنـا الكافينيـاك، تقـدم زميـلاي فـي القيد وهمـا مقيدين ببعضهما يسبقهما شرطي، وكنتُ خلفهما مقيد اليدين وخلفي شرطي آخر، فدخلنا المحافظة التي كانت تقع في أحد أزقة شارع الأرجنتين،

facebook.com/the.Boooks

تقابل عمارة مدنية مسخرة للسكن، وكان أسفلها ثلاثة محلات لم تزل مفتوحة: مطعم، محل تبغ ومحل هاتف عمومي.

أما الطريق الفاصلة بين المحافظة وهذه المحلات فقد كانت مملوءة بالممهلات الاصطناعية غير الثابتة، وضعت هناك لمنع السيارات من استعمال الطريق، وهو علامة عن حالة لا أمن استشرت في الجزائر العاصمة بعد موجة من التفجيرات التي عرفتها، ومع ذلك فلم يكن الوضع في العاصمة أخطر مما هو عليه في أي عاصمة أخرى.

كان المرقد يقع على يمين قاعة الاستقبال، لا يمكن ولوجه إلا عبر بوابة حديدية لا تفتح إلا من الداخل، مصبوغة بالأخضر على شاكلة بوابات الإقامات الرسمية المصفَّحة ولكنها كانت أكثر سماكة وأقل فخامة، ومن سماكتها بدا طرق الشرطي القوي عليها كنقر عصفور على جذع شجرة عظيمة.

ما إن فتحت البوابة حتى تكشّفت عن ردهة بطول خمسين مترا، على يمين المدخل مغسل صغير أبيض اللون تعلوه مرآة صغيرة بحجم اليد مثبتة على الجدار، وبجانب المغسل باب بني اللون من خشب رديء هو باب المرحاض، وعلى طول الردهة زنزانتان بقضبان مطلية بلون أزرق سمائي استشرى فيها الصدأ، تنتهيان إلى مكتب حديدي شبيه بذاك الذي رأيته سابقا بمحافظة ديدوش مراد، وخلفه خزانة جدارية مكونة من صناديق بأقفال تجر أفقيا مرقمة من اليمين إلى اليسار بشكل تصاعدي، وكان على المكتب سجل ضخم مغلق أُشِّرت فيه آخر صفحة محررة بورقة حمراء مطوية. أما على يسار

facebook.com/the.Boooks

الخزانة الحديدية فكانت هناك خزانة خشبية بنية، وبجانبها زنزانة ثالثة أقل حجما من زنزانتيْ الردهة.

وإذ نحن نهم بالدخول تتابعنا في صف بنفس الترتيب الذي ولجنا به المحافظة، وكان الشرطي الذي طرق الباب يسبقنا دائما، حاملا ملفاتنا، فأمرنا بالتوقف ثم تقدم لوحده إلى المكتب الموجود في آخر الردهة وسلم المكلف بالحراسة ملفاتنا وبطاقات هويتنا، ثم قام بنزع قيودنا واحدا واحدا، فكان كلما فك واحدا منا يأمره بالتقدم في اتجاه المكتب، فيسأله الحارس عن هويته ثم يأمره بتسليمه كل ما يحمل في جيبيه، بالإضافة إلى حزام السروال والهاتف النقال إن وجد وكذا أربطة الحذاء والخواتم وغيرها من منقولات، وكان ما أن ينتهي من تدوين منقولات المحبوس، يفتح له زنزانة ويأمره بالدخول.

كانت معي ساعتها ورقتان واحدة بألف دينار والأخرى بخمس مئة وبعض الفكة بلغت فيما أذكر تسعين دينارا، سلمتها للحارس مع حزام سروالي البني وساعة يد معدنية، ثم فتح لي الحارس باب الزنزانة وكنت آخر من دخلها، في حين انسحب الشرطيان اللذان كانا بصحبتنا وهمّا بالخروج.

الآن وأنا أستذكر تلك الليلة أجدني أتذكرها كأنها البارحة، أتذكر كل التفاصيل، تفاصيل قد تبدو تافهة، إلا أنها علقت في رأسي، كما يعلق النقش في صخرة جبلية إلى الأبد.

أذكر، مثلا، ما كنت أرتدي وبالتفصيل الممل: سروال جينز

facebook.com/the.Boooks

أزرق اشتريته قبل يومين من سوق العقيبة، فضلت أن يكون مقاسه أكبر من مقاسي برقمين، لذلك ما أن سحبت حزامي حتى تدلى فاضطررت لأمسك به، حزام بنّي بدأ غلافه الجلدي يتآكل من طرفيه، حتى أن مغلاقه المعدني فقد لونه الفضي لصالح لون آخر بين لونه الأصلي والأصفر، تريكو أزرق من الصوف اقتنيته من محل للألبسة المستعملة بالقبة، أما الحذاء فكان من نوع موكاسان اشتريته عشية عيد الفطر من باش جراح، أذكر أيضا أنني لم أكن أرتدي معطفا رغم برودة الجو.

هكذا هي التفاصيل في حياتنا تافهة في حاضرنا، مهمة في المستقبل، كأنها تتعمد التواضع في رحلة تعلم أن نهايتها لصالحها بالضرورة، ففي نهاية المطاف تصبح التفاصيل "التافهة" آخر ما يعلق بالذاكرة، ثم تصبح كل ما بالذاكرة، وفي لحظة سحرية تصبح التفاصيل التافهة كل الذاكرة، تماما مثل ما حدث لي مع نبوءة المرأة العجوز. بدأت كقصة ليلية تمتطي نبرات صوت أمي الدافئ، همسات، أصابع تلملم شعري الأسود، كلمات تتدافع نحو مخيلتي الصغيرة لترسم وجها نحيلا، تتموضع عليه أخاديد الزمن تجاعيد تثبت تجذّر صاحبته في الحياة، على وجنتيها وتحت شفتها السفلى وكذا بين حاجبيها، أوشام متطابقة: خط عمودي يتفرع إلى خطين منفرجين، يا ألله، ما أشبهها بيمَّا عيشة، عينان غائرتان، ووجه هلالي أبيض.. الآن أجد الأمر غريبا، كيف تطابقت صورة جدتي مع صورة المرأة العجوز، ولكن أنَّى لطفل في الرابعة أن يتخيل عجوزا تختلف عن جدته؟!، وأنى له أن ينسى تلك الجمل المسجوعة التي ترويها أمه على لسان العجوز" تزيّدي تسعة، الرجال فيهم ربْعة، واحد ظالم ولاخر عالم، واحد أعمى ولاخر يرفدو الما".

facebook.com/the.Boooks

كانت قصة ليلية ولكن سرعان ما تسللت عبر فراغات أوقاتنا إلى نهاراتنا، أنا وأمي، لتتموضع في مكان ما بين ما يجب أن يبقى في أدراج طفل في الرابعة وما يجب أن يحدث فعلا في حياة شاب في الثلاثين، ربما تكون أمي أول من آمن بالنبوءة ولكنني بالتأكيد كنت أنا من كرّس حياته لها، ولعلني كنت سأسخر لها حياتي كاملة، لو لم تقدني قدماي إلى المحافظة السادسة، هناك أين بدأت رحلتي إلى هنا، حيث رائحة الأقدام والعرق الرجالي المنبعث من أجساد هؤلاء الممددين والجالسين في مساحة لا تزيد على خمسة أمتار مربعة.

فاجأني عددهم وأنا أبحث عن موضع قدم بينهم، لأبلغ مكان صاحبيَّ في القيد، حيث كانا قد نجحا في إيجاد مكان لهما بين كل هؤلاء.

على عكس ما تصورت لم يكن الطريق إليهما يسيرا، فقد كان محفوفا بالنعال والأرجل والوجوه، ولولا الأيدي التي كانت تمسك بي تارة وتوجهني تارة أخرى، لكنت سقطت على جسد من تلك الأجساد المبعثرة هنا وهناك، فقد كان الجميع ممددين ينتظرون ساعة النوم، باستثناء رجلين كانا يفترشان جنبا إلى جنب يتبادلان أطراف الحديث، في حين كان البقية يصغون إليهما بانتباه بمن فيهم صاحباي اللذان دخلا للتو، فقد كانا يحاولان الإصغاء. ومثلما تقتضيه اللباقة ألقيت عليهم السلام، فردوا عليَّ في صوت واحد تناغمت فيه أصواتهم واتحدت بشكل طريف.

لم تمض ساعة من الزمن، حتى اكتشفت أن الجميع سألني، بطريقته، عن جريمتي وسبب اقتيادي إلى هنا، إلا أن الجميع لم يقتنع - فيما يبدو- بإجابتي الساذجة "لست أدري"، ثم لم تمرَّ دقائق أخرى حتى اكتشفتُ أن الجميع وصل إلى استنتاج واحد، وهو أنها

facebook.com/the.Boooks

أول مرة يُلقى فيها القبض عليّ، وهكذا وجدتُني أنسلخ شيئا فشيئا عن صاحبيّ الأحمقين لألتحق بعالم هؤلاء الممددين في مساحة لا تتعدى الخمسة أمتار مربعة.

كان الجميع يفترشون حصيرة بنية كبيرة بحجم أرضية الزنزانة، تنبعث منها روائح مختلفة، أطيبها رائحة العرق، وقد جعلوا أحذيتهم تحتها يسندون عليها رؤوسهم، باستثناء رجلين افترشا بجوار بعضهما أفرشة جديدة، عليها ملاءات بيضاء جعلت فوق بعضها، وبجوار فرشيهما بطانيتان من الصوف الناعم ووسادتان مغلفتان.

أحدهما بدا في الستين من العمر، مكتنز الجسم، يرتدي جلابة محلية فضفاضة، بفتحة مثلثة تبلغ الصدر، تحتها قميص أبيض من القطن وسروال من نفس اللون والمادة، كان يضع على رأسه قلنسوة بيضاء هي الأخرى، تزينها نجمة خماسية زرقاء، ورغم التعب الذي كان باديا على وجهه، إلا أن ابتسامته المستمرة ونظراته الهادئة، كانتا تحقنان حديثه بحيوية لا نجدها حتى عند شاب في العشرين.

كان هذا الحاج المنور، اقتيد إلى هنا بعد أن قضى عشرة أيام كاملة يتنقل من محافظة إلى أخرى، من غرداية إلى العاصمة، بسبب حكم غيابي صدر ضده في قضية ضرائب، حين كان يعيش في العاصمة منذ أكثر من خمس سنوات، فكان أولاده في رحلة عذابه تلك يتنقلون معه بأمتعته وفرشه.

أما صاحبه المفترش بجواره، فقد كان في الأربعين من العمر، مدير مؤسسة خاصة، تم توقيفه في المطار وهو يهم بركوب الطائرة، إذ صدر ضده أمر بالقبض لإصداره شيكا بدون رصيد، وكان من

facebook.com/the.Boooks

المفترض أن تنظر محكمة سيدي أمحمد في قضيته يوم السبت.

المهم أن تحافظ على صحتك.

قال الحاج المنور يخاطب صاحبه، وفي يده علبة دواء مكتوب عليها بالفرنسية "COAPROVEL ".

هذا ما أحاول فعله.

رد بصوت هادئ يكاد لا يسمع، وهو يحاول أن يخرج قرصا من العلبة بيدين ترتعدان كساهما شعر كثيف. وحين أدرك الحاج المنور أن صاحبه غير قادر على فتح العلبة، استعادها منه وأعطاه قرصا منها.

ـ.. خذ هذه.

ثم مرر إليه قارورة ماء ليتمكن من ابتلاع القرص.

بالشفاء عليك يا النذير.

وسأل:

منذ متى وأنت تعاني من ارتفاع الضغط؟

أعتقد منذ ست سنوات.

ثم أضاف:

هذا مرض موجود في العائلة.

مسحت إضافته نظرات الاستغراب التي ارتسمت على وجوه المحبوسين، ممن كانوا يتابعون حديثهما، فقد كان من الغريب أن يصاب رجل في عمر النذير بارتفاع ضغط الدم.

وإذ ذاك، لوح لي الحاج المنور أن "اجلس بجواري"، وما كدت أفعل حتى ناولني حبة موز أخرجها من حقيبة صغيرة كانت بجواره وهو يقول:

facebook.com/the.Boooks

ربما تكون جائعا.

فهـززت رأسـي إيجابـا، فقـد أنهكني الجوع حتى لـم أعد قادرا على الكلام، فأخرج من حقيبته خبزا وحبتي جبن وناولني إياها.

ومن دون أن ينتظر شكري، أخذ يكمل حديثا أحسب أنه قطعه ساعة دخلنا الزنزانة، وكان الجميع مهتمون بهذا الحديث بمن فيهم زميلايٍ في القيد. فحاولت أن أفعل مثلهم ولكن النعاس أدركني قبل أن يدرك عقلي موضوع الحديث.

مهما يكن فقد استيقظت من غفوتي بعد ساعة أو ساعتين على صوت الباب الحديدي وهو يفتح، ربما كانت الساعة الرابعة صباحا، وكنت إذ ذاك قد بدأت للتو آلف رائحة العرق والأرجل المتعرِّقة.

فتحت عينيَّ على مشهد أحد المحبوسين في زنزانتي وهو مازال مستيقظا يدخن سيجارة بنهم كبير، وما أن أغلق الباب حتى خُيِّل إليَّ أنني أسمع صوت امرأة.

خُيِّل إليَّ أنها تقول" ربي وكيلهم". فحاولت أن أنظر في اتجاه باب الزنزانة دون أن أجلس، وكنت ساعتها مستلقيا على جنبي بعد أن طويت ساقيَّ ويداي تتقاطعان وكأنهما تضمانني مشكلتان رمز إكس، وكنت على تلك الوضعية بسبب المساحة التي مُنحتها للنوم، وكذلك بسبب البرد الذي كنت أحسه في عظامي.

لقـد كانـت ذات المـرأة السـمراء التي شـاهدتها فـي المحافظة السادسـة، سَـنحت لي فرصة وقوفها أمام المكتب الحديدي لتسـلِّم أغراضها الشـخصية لأسـتبين ملامحها: متوسـطة الطول، شـعر أسود فحمـي قصيـر لا يتجـاوز شـحمة أذنيهـا، وُضِّب بشـكل يوحـي بأنه سُرِّح للتو، ترتدي بذلة رمادية بقميص حريري أبيض، كانت صارخة الأنوثـة رغـم ما يسـتعرضه جسـدها من نحول، تمامـا كعارضة أزياء

facebook.com/the.Boooks

روسـية ولكـن بسـمرة إفريقيـة داكنة، كانت باختصـار من النوع الذي تتـردد فـي معاكسـته فـي الشـارع خوفا من أن ترمقك بنظرة اشـمئزاز وتقزز!!.

وأنا أنظر تساءلت "كيف لهذا المخلوق الذي لخص أجمل ما تبدعه يد الله أن يجد نفسه في هكذا مكان؟!".. تساءلت فقط دون أن أجهد نفسي بالبحث عن الجواب، فقد كنت في قرار نفسي سعيدا لوجودها هنا، فحتى أقبية الجرذان المظلمة تحلم ببعض الضوء!.

ثم ما لبثت أن عدت إلى رقدتي بعد أن استقرت الفتاة السمراء في الزنزانة الصغيرة خلف المكتب الحديدي.

لا أذكر أني حلمت بشيء تلك الليلة، ولربما كنت أود أن تتسلل الأحلام بين القضبان لتصل إليّ، كانت هذه مجرد رغبة جامحة لرجل أدرك للتو أن لا مكان للأحلام هنا..

facebook.com/the.Boooks

- 3 -

" إثنتا عشـرة سـاعة من الاحتجاز، أربع سـاعات من النوم، إثنتان وثلاثون سنة من الفراغ"..

علـى هـذا فتحـت عينـيَّ وأنـا منكمـش على نفسـي كجنين في بطن أمه، الجميع نيام، عدا المرأة السـمراء تلك التي غيَّرت بعطرها الباريسي رائحة المكان.

هذا ما تفعله النساء عادة، يُغِيِّرن المكان، لا يهم إلى ماذا يُغيِّرنه، فقـط يفعلـن ذلـك، فحتـى وإن لـم تتعمدنه إلاّ أن فطـرة التغيير تولد معهن، فمعهن تكون الحياة وبهن يكون الموت أيضا.

فتحـت عينـيَّ ببـطء، وأنـا أدعـو فـي سـري ألا أكـون في ذات المـكان الـذي اسـتلقيت فيـه منذ أربع سـاعات. ولكـن رائحة العرق ومنظـر الأرجـل المتسـخة أعادتني إلى واقعي خائبا. اسـتيقظت رغم تعبـي ورغـم رغبتـي في سـاعات نـوم أخرى على صوت تسـلَّل إلى أذنيَّ قادما من آخر الردهة، كان ذلك صوت المرأة السمراء تحادث شرطي الحراسة:

- ربي وكيلو..

"قالت بصوت غارق في الحزن"

- ذلـك أفضـل؛ وَكْلـي عليـه اللـه، ولكن حين تقابليـن الوكيل أخبريه بقصتك.

facebook.com/the.Boooks

- لن يصدقني..

ردت المرأة السمراء، وكانت في صوتها بحَّة من بكاء حديث.

- لن يصدقني، ستكون كلمته مقابل كلمتي.

- لا يهم، عليك أن تخبريه بكل شيء، ربما يكون الوكيل يخاف ربي.

- لا، كلهم يتشابهون.

قاطعته ثم أردفت:

- جميعهم يفكرون بنصفهم الثاني، مجرد حيوانات..

- اتَّقي الله!

تمتم الشرطي بعد صمتَ لحظة واستطرد:

- لسنا جميعا متشابهين، هذا الذي حدَّثتني عنه مجرد شرطي فاسد، في كل الناس من هو فاسد وصالح، فأصابع اليد لا تتشابه، و..

قاطعه بكاؤها الذي كانت تحاول كتمه دون جدوى، ثم سرعان ما اشتدَّ حتى أصبح كالعويل، حينما انفجر صوت من الزنزانة المجاورة:

- أسكتي يالفايْحة

كان هذا نزيل قد أيقظه بكاء المرأة ولعله يكون قد سمع شيئا من الحديث.

قام الشرطي مسرعا إلى حيث الصوت وحذر النزيل بشيء من الحزم، ثم سادت بعدها لحظات من الصمت الذي قطعه صوت الشرطي وهو يحاول تهدئة المرأة السمراء بعد أن عاد إلى مكتبه الحديدي:

facebook.com/the.Boooks

- لا عليك، كان مجرد أبله لا غير.

لم تعلِّق المرأة السمراء واستمرت في كتم بكائها حتى هدأت، وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى عاودت الحديث:

- أنت على حقّ، سأقول للوكيل كل شيء.

- المهم أن تخبريه أنه عرض عليك تمزيق المحضر مقابل أن تمكِّنيه من نفسك.

- نعم، نعم وبعد أن فعلت، جرَّني كالكلبة.

- يغفر الله لك، هو الكلب وليس أنت.

- خنزير، عندما أتذكر..

قاطعها:

- ولكن كيف بدأ الأمر؟

- أرأيت؟.. قلت لك، حتى أنت لا تصدقني.

- أصدقك، ولكنك تتحدثين عن ضابط.

- السمين القذر، بدا رجلا لطيفا، حتى أنه طلب لي أكلا وعلبة سجائر، ثم..

لا أتذكر شيئا بعدها فقد غلبني النعاس، وقد خيل إلي ساعتها أنني رأيت إسماعيل جالسا القرفصاء داخل الزنزانة، إلا أن التعب منعنني من التأكد فكما قلت غلبني النعاس.

لم أستيقظ إلا بعد ساعة، أو هكذا اعتقدت، بعد أن كثر "الدحيس" في الزنزانة وأصوات النزلاء في الزنزانتين تملأ الردهة.

كان الجميع واقفين أمام بوابة الزنزانة، بعضهم يمسك بقضبانها والبعض يحاول أن يجد لنفسه مكانا للوقوف قربها، كانوا ينتظرون

facebook.com/the.Boooks

دورهم للخروج إلى المرحاض، في حين بقيت في مكاني وأنا شبه سعيد بالفسحة التي وجدتها لأمدد فيها رجلي بعد ليلة كاملة من الانكماش، ثم تذكرت آخر ما رأيته قبل أن أستسلم للنوم، فأخذت أمشط الزنزانة بعيني بحثا عن إسماعيل.

أنت هنا؟!.. خلت ذلك مجرد وهم.

قلت ذلك وأنا أربت على ظهره ليستيقظ، وكان حينها ما يزال يغط في النوم.

فتح عينيه ببطء ونظر إليّ وقد بدا غير متفاجئ بلقائنا.

دعني أنام قليلا.

قال ذلك ببرودة لا تخلو من التذمر، ثم أضاف:

سنتحدث لاحقا.

رغم برودته معي إلا أنني كنت سعيدا بوجوده هنا، ليس لأنني رغبت في أن يحبس مثلي ولكنني كنت آمل أن يساعدني وجوده في محنتي.

حين انتهى الجميع من قضاء حوائجهم، سجل الشرطي الحارس طلبيات كل محبوس ليقوم باقتنائها، وما لبث أن عاد محمَّلا بالسجائر والقهوة، وكانت هذه أكثر طلبيَّاتنا.

وبعد أن أشبعت شهوتي من السجائر والقهوة، وجدت لي مكانا بجانب إسماعيل، محاولا ألا أنشغل بمن حولي إلى حين أن يستيقظ، ولكنني سرعان ما أدركت استحالة الأمر، إذ كيف يمكن للمرء أن يستوحد في مكان يعجّ بالأجساد والأحاديث الفارغة؟!، سؤال لم أكن لأجرأ حتى على التفكير فيه أيام كنت أعيش مع أمي

facebook.com/the.Boooks

وجدتـي وإخوتـي الثمانيـة، ثمانيـة وأنـا تاسـعهم، تماما مثلمـا تنبَّأت المرأة العجوز. كنا نعيش في شقة من غرفتين في نهج عيسات ايدير بميسـونيي، شـقيقاتي وأمي ويما عيشة في غرفة، وأنا وإخوتي الثلاثة وأبي في غرفة أخرى، ثم ما لبثت أمي أن أنجبت فتاة وأنا في سـن الرابعة أسمتها سناء، إلاَّ أنها توفيت في شهرها الخامس، قالت أمي إنهـا لـم تحـزن لموتها، لأنها كانت قـد تنبأت بذلك، فالمرأة العجوز لم تخبرها شيئا عن المولود العاشر، أما سيدي احمد بن يونس فقد قال إنها وُلدت هزيلة لم يفارقها الصفاير حتى فارقت الحياة، وكانت جدَّتي كلما سألتها عن موتها تجيبني أنه قضاء وقدر.

المهـم أننـا عدنـا إلى عددنـا الأول، حتى يوم توفـي أبي وبعده جدتي.

يوم رحلت يما عيشة أيقظتني في السادسة صباحا والحقيقة أن رائحـة "الفطيـر" المنبعثـة مـن المطبخ كانت سـتوقظني لـو لم تفعل، كانت هذه عادتها كلما علمت أنّني في فترة امتحانات، تستيقظ ساعة الفجر لتصلي ثم تضع "قصعة" مُطَيَّنة وتبدأ في العجن، تحضر القهوة والحليب والجميع نيام، وبعدها توقظني وقد أعدت كل شيء.

أذكر أنها لم تكن كأمي توقظني بهزي أو مثلما اعتادت زوجتي أن توقظني بالقبلات وبسحب الغطاء لاحقا، كانت تربِّت على صدري وكأنني طفل تحاول تهدئته، وما أن أفتح عينيَّ حتى تقبلني على جبيني قبلة حارة، دافئة وهي تهمس لي:

- نوض يا وليدي، راح الحال.

في ذلك اليوم أيقظتي صباحا، ربتت على صدري، قبَّلت جبيني ثم قدمت لي فطور الصباح، وقبل رحيلي دسَّت في محفظتي خلسة

facebook.com/the.Boooks

بعـض "الفطيـر"، هكـذا اعتـادت أن تفعل قبل أن تُشـيِّعني إلى الباب وهـي تدعـو لـي بالتوفيـق، إلا أنها في ذاك الصبـاح عندما انتهت من الدعاء لي قبَّلتني على وجنتيَّ قبلة طويلة، هكذا أتخيلها اليوم، طويلة جدا، حتى خُيِّل إليَّ أنها تركت شفتيها ملتصقتين بوجنتيَّ ساعة كاملة، حينذاك لم أجد الأمر غريبا، اليوم أحبُّ أن أقول لنفسـي إنها كانت تدرك ساعة موتها.

مـع رحيلهـا تقلـص عددنـا، وكان قد تقلص مـن قبل مع رحيل أبي.

لم تكد تمر سنتان حتى اكتشفت والدتي أن بوعلام أكبر إخوتي أدركته سـن الثلاثين فقررت تزويجه، فاحتل مع زوجته غرفة وبقيت أمي وشقيقاتي في غرفتهن، أما شقيقاي ابراهيم ومناد فاختارا المطبخ يقضيان فيه لياليهما، وفضلت أنا أن أفترش أرض الرواق،

هكذا تعلمت أن أسـتوحد في مكان يعج بالأجسـاد والأحاديث الفارغة، أما الآن فقد فقدت هذه الموهبة، لم يعد بمقدوري أن أنفصل عن واقعي الضيِّق لأتصل بعوالم الخيال الشاسعة، وكم كانت رغبتي عظيمة في الانفصال عن واقع زنزانة الخمسة أمتار تلك.

هل ترغب في إجراء مكالمة؟

قال الشاب ذو اللكنة القبائلية يحدثني، بعد أن جلس القرفصاء بجانبي.

- ولكن..؟!

- لم أعطهم هاتفي أمس، أخفيته في الداخل.

وأشار إلى أسفل بطنه، وأضاف:

facebook.com/the.Boooks

- ولكن حاول أن تكون كتوما.

سـلَّمني هاتفه النقال في تسـتُّر شـديد، إلا أنني سرعان ما أعدته إليه شاكرا:

- شكرا، لا عليك، لا أحد لي لأعلمه بمكاني.

- لا أحد؟!

قال بنبرة المستغرب.

- لا أحد، لا أحد يهمه أن يعلم بمكاني.

- وزوجتك.. ألا تملك زوجة؟

- ربما أملك.

- ربّي يهديك، ألديك زوجه أم لا؟

مـرة أخـرى لجـأت إلـى حيلة الابتسـامة وصرفت بصـري عنه، مفضـلا النظـر إلـى الأرض، فنهـض مـن مكانـه والتجـأ إلـى صاحبه المسـطول. أحسـب أنني سـمعته يقول له هامسـا "لن تصدِّق.."، ثم تاهـت كلماتـه فـي زحام الأحاديث الفارغـة التي كانت تملأ الزنزانة، ولكنّني استقرأت من نظرات المسطول إليَّ بقية الجملة: "لن تصدِّق أن ذلك الجالس هناك مجرد مخبول..". هكذا أحبُّ أن أتخيَّل الأمر، أو هكذا كان الأمر فعلا.

تملَّكني الضحك وأنا أستذكر ردة فعل الشاب ذي اللكنة القبائلية حيـن التجـأت إلـى ابتسـامة مدام موفـق، أعجبني كيف فهـم أنها تعني عزوفي عن مواصلة الحديث. أعلم أنه لم يكن فهما عن إدراك بقدر ما كان منعكسا شرطيا كمنعكس بافلوف (كلما توفرت الشروط الدالة على الفعـل، تحقـق الفعـل)، فغالبا يكون قد تذكـر الصمت الذي أغرقته فيه حين تحدثنا أول مرة وتذكر ابتسامتي لحظتها، مجرد منعكس شرطي.

facebook.com/the.Boooks

هل من الصعب أن تقول للناس أنك متزوج؟

فاجأني إسماعيل بالسؤال، وكان قد استيقظ لتوه من النوم.

لا، ولكنني لا أستطيع القول أنني أملك زوجة.

هذه مجرد تعابير لا تهم سواك.

قال متذمرا وهو يجلس وقد أسند ظهره إلى الحائط.

ولكن تجاوز اللفظ رغبة في التيسير قد يضطرنا إلى تجاوز معناه، ما يعني الوقوف على ضده ومع مرور الزمن نجدنا نتبنى هدا الضد، وهذا.

قاطعني:

- أعرف.. أعرف: وهذا ما جعل الرجل يصدق أنه يملك زوجته، وجعل المرأة تفترض أن زوجها ملك لها.

- صحيح، صحيح..

صحت، منتشيا بانتصاري عليه، فقلما كنت أحرز عليه فوزا ما، إلا أنه سرعان ما أضاف:

وتظن أن أحدا من هؤلاء تهمه مثل هده الترهات؟

وقبل أن أجيبه أردف:

أليس من الأولى أن تفكر في مصيبتك؟

كان مصيبا كعادته، فقد كادت سعادتي بوجوده معي أن تنسيني ما أنا فيه.

نظرت حواليّ، فرأيت معظم المحبوسين ينظرون إلي مبتسمين.

"علام يبتسمون"، قلت لنفسي دون أن أجهدها في البحث عن إجابة، فلم يكن يهمني من أمر هؤلاء شيئا، مجرد وجوه لن أتذكرها

facebook.com/the.Boooks

بعد خروجي من هنا.

وأنت ما مصيبتك؟

لا شيء خطير كما أعتقد، مجرد شجار فقط.

شجار؟، مع من؟

مع الشرطي الذي أخد بطاقتك، فبعد أن أخبروني أنك موقوف، فكـرت أن لا أتـركك تحـت رحمتهـم، وأنت كما أعرفك مدمن على التدخين، فاقتنيت لك علبتين من السـجائر وسندويشـا، وحاولت أن أصل إليك فمنعني دلك الشرطي و..

قاطعته:

فوجدت نفسك معي.

كما قلت لك لا شيء خطير.

هـذا هو إسـماعيل صديقي، أخـر الأصدقاء وأوحدهم، لا أذكر يـوم تعرفـت عليـه، ولا منـد متى صاحبني، فلطالمـا أجهدت ذاكرتي لأتذكر دون جدوى، حتى هو كلما سألته يتحجج تارة بالنسيان وتارة أخرى يسـتعين بابتسـامته الخبيثة للتملص من الإجابة، ولكنه على ما أذكر كان دائما معي، حتى في أكثر أوقاتي تعاسة، وهي أكثر أوقات حياتي.

أحيانا أشـعر أنه كان معي حتى في سـنوات طفولتي، فقد كان يعـرف كل شـيء عنـي حتـى أكثرهـا حميمية، ربما كان ذلك بسـبب السـاعات الطـوال التـي كنـا نقضيهـا في الكلام، فقـد كنا لا نمل من

facebook.com/the.Boooks

الحديـث، ورغـم ذلـك فلـن أزعـم أنني أعرفـه كما يعرفنـي، فبالكاد أعرف منزله وزوجته عفاف، بل عرفت عفاف أكثر مما عرفته، فعلى الأقل أعرف والديها، أما هو فكأنه جاء من العدم.

كنـت كلمـا حاولـت جره للحديث عن والديه، يجرني للحديث عن أبي، رغم أنني كنت قد قصصت عليه كل قصتي، فأعيدها عليه، وأراه مصغيا لي كأنه يسمعها لأول مرة، ربما هذا ما أحب أكثر فيه. كان يحب أن يصغي إلى حكاياتي عن النبوءة والمرأة العجوز. إلا أنه رغم ما عاشه معي وما رآه من تحقق النبوءة، كان كافرا بها، ولفرط ما جادلني حولها، لم أعد أهتم بكفره هذا، ففي نهاية الأمر لم يكن أنـا، لـم يعـرف دفء حضن جدتي ولا قبلتها الحنونة، ترسـمها على جبينـي كلمـا أيقظتنـي صباحا، لم يعش ما عشـته من حب ولعنة، لم يكن يعرف كيف للقهر والظلم أن ينجب طفلة رغم موتها اسـتمرت تطاردنـي كمـا تطاردنـي النبـوءة، تضربني كمـا كان أبي يفعل يضرب أمـي، ثـم تصالحنـي في لحظة شـهوة، كما كان أبـي يصالح أمي بعد حصـة الضـرب والـركل واللكمـات، لتنجب له ولـدا جديدا، وكانت سناء آخرهم.

الآن بعد هذا العمر، أتساءل ماذا لو لم تزهد الحياة في سناء؟، ماذا لو لم أكن أنا آخر مصالحات أبي لأمي؟، ماذا لو تجاهلت سناء ملك الموت وكذَّبت نبوءة المرأة العجوز وكانت العاشرة؟، ماذا لو لم تولد بالصفاير، أو أن قلم القضاء لم يخط اسمها في كتاب الموت؟!، هل كنت لأكون أنا، تاسع إخوتي وآخرهم، رجلا يلهث خلف نبوءة أكبر منه بعشـرين سـنة، واسـتمرت معه تكبر كلما كبر، يراها تتحقق شيئا فشيئا، جزءا فجزءا، حتى حين يظن أنه أدركها تفلت منه.. نبوءة زيْتية.. كلمات شاعر لم يدرك النضج، تتفتت بين أصابعه لتصير"بين

facebook.com/the.Boooks

بين"، لا شعر ولا نثر، مجرد كلمات تحاول أن تصطف، تحاول أن تصير شيئا دون أن تكون.

الآن بعد هذا العمر، أتساءل ما جدوى هذه الأسئلة، لم تكن سناء آخرنا بعد أن رحلت.

كان إسماعيل يسألني عن أبي، فأقص عليه حكايته، حكاية قصيرة انتهت حين بدأت، كأحلامي الصغيرة، خط يمتد مني إليّ..

مات أبي قبل أن ينقضي عام من رحيل سناء، "ربما لأنه أحبَّها أكثر منا". توقف عن العمل، إلا أنه ظل يخرج كل صباح ولا يعود إلا ليلا. كنت كلما سمعت الباب يفتح ليلا، أخرج من بين أحضان جدتي، رغبة في رؤيته. كنت أعلم أنه لن يأخذني في حضنه، ولن يقبلني حتى، ولكنني كنت في كل ليلة أنتظر دخوله، فأخرج رأسي من شق باب الغرفة بحيث أراه ولا يراني، فأشاهده يدخل متثاقلا، تعبا، حتى أنه كان في الكثير من المرات، ما إن تلج قدماه الدار حتى يسقط أرضا من شدة التعب، فتحاول أمي أن تعينه على الوقوف فيمتنع عنها، لا يفعل مثلما عهدته، لا يضربها ولا يركلها، يمتنع فقط، ولا يسمح إلا لأمها يمَّا عيشة بذلك، كانت تُدخله الغرفة وتحضر منديلا وتمسح جبينه وهي تهمس إليه بصوتها الغارف حنانا "ماشي هكذا، يَهْديك ربِّي، الصبر جنَّة"، ثم تنصرف وهي تستغفر الله. ومع مرور السنين أدركت بعد أن طلَّقت الطفولة أو بعدما طلقتني الطفولة، أنه لم يكن يعود متعبا مثلما كنت أراه بعينيّ ملاك في الرابعة، كان ثملا، غاية في الثمالة، رائحته التي كانت تملأ الدار، كلما دخلها، لم تكن عطرا، كانت رائحة البيرة والروج.. رائحة أعرفها الآن، تلك التي كثيرا ما أجهدت نفسي لوأدها قبل أن أصل منزلي بأصناف العطور الفرنسية دون أن أنجح يوما.

facebook.com/the.Boooks

قبل أن يرحل اشترى والدي سجادة ومصحفا وانعزل عنا، لم يكن يفعل شيئا غير الصلاة والترتيل والبكاء، أحيانا كنت أتسلل إليه مثلما كنت أفعل مع والدتي في ساعات انعزالها، فما أن يلحظني حتى يمسح وجهه بساعده، لطالما رغبت أن يجلسني على حجره، أن يضمني إليه، أن يقبِّلني على جبيني مثلما تفعل جدتي، لكنه لم يفعل، تماما مثلما عهدته، قوي، حتى في ساعة ضعفه.

أذكر يوم رحيله، حدث ذلك في يوم من عام 1978، لم أكن في المنزل يومها، دخلت الدار بعد أن تعبت من اللعب مع أقراني، إذْ كنَّا نلتقي كل يوم صباحا في النفق المغطى من سوق ميسونيي المعروف اليوم بسوق فرحات بوسعد، في تلك الأيام كان مجرد مساحة مغطاة، محلاته مغلقة تستعمل كمستودعات، عدا محلا واحدا فيما أذكر، كنا نتجمع هناك كل يوم ونلعب كرة القدم ولا نتوقف حتى تتوسلنا أجسادها أكلا وراحة، فنفترق لنلتقي مجددا في المساء.

دخلت الدار وقد استغربت أن يكون الباب مفتوحا على مصراعيه، فكثيرا ما كانت أمي تشبعنا أنا وإخوتي ضربا وصراخا حين كنا نترك الباب كذلك. تسمَّرت ومشهد الواقفين على طول الرواق يرتسم على مُقلتيَّ، امتلأتا بالوجوه حتى تراجع سوادها وتقلص من ضوء المصابيح المشتعلة نهارا.. فجأة توقف الجميع عن الحديث، اخترق صمتهم أذنيَّ وكأنه جملة دون حروف.. حاولت أن أتجاوزهم ببصري لأفهم شيئا، أي شيء، لكن الوجوه بقيت صامدة، وكأنها تجذّرت في مقلتيَّ إلى الأبد، ثم انهرت أرضا بعد أن حاولت جاهدا، دون جدوى، أن أفسح لي طريقا بين أجساد أصحاب الوجوه، وفي لحظة الانهيار، حين لامست ركبتاي الأرض ولاصقت ربلتا ساقي فخذي، تسللت يدان بين هؤلاء الواقفين في الرواق، بيضاوان، نحيلتان، جلد

facebook.com/the.Boooks

وعظم وأوردة زرقاء بارزة، تتفرع على ظهر كفّين تزيَّنتا بنقاط حمراء وزرقاء موزعة عليها بشكل غير عادل، سحبتاني إليها.. كانت تلك يما عيشة حملتني وجعلت ساقيَّ تلتفان حول خصرها العظمي، ثم ضمَّتني إليها ودفعت برأسي على نحرها، وهي تهمس إليّ "باباك مات".

لا شيء بعدها، همس فقط.. هكذا أذكر يوم رحيل أبي، كنت في الرابعة من عمري، فمنعت من حضور الجنازة، بقيت مع جدتي في مسكن خالتي لأكثر من شهر، وحين عدت وجدت جميع من تركتهم هناك: شقة من غرفتين، إخوتي، أمي، جميعهم كان حاضرا إلا أبي، ولكنني بين الحين والحين كنت أتسلل ليلا من فراشي والجميع نيام، وأسير في خلسة حتى المطبخ دون أن أشعل النور، فيخيل إليَّ أنِّي أراه جالسا على حصيرته يرتِّل ويصلي، ولكن من غير أن يبكي، وما إن يراني تجحظ عيناه ويصرخ فيّ: "أمشي، روح ترقد"، تماما مثلما عهدته، قوي، حتى في مماته.

هكذا كان إسماعيل يفعل كلما حاول التهرب من أسئلتي عن والديه، كان يكفيه فقط أن يجعلني أتذكر شيئا من ماضيّ، وعدا ذلك لم أكن لأجد لنفسي صديقا أفضل منه.

ماذا ستفعل الآن؟

سألني وهو يرشف ما تبقى من قهوتي.

لا شيء غير الانتظار، على الأقل حتى أعرف تهمتي.

ثم استدركت:

وأنت ألم يخبرك الشرطي شيئا عن تهمتي؟

facebook.com/the.Boooks

لا شيء بالتحديد، فقط أن أمرا بالقبض صدر ضدك.

يعني ذلك أن حكما غيابيا صدر ضدي.

يظهر أنك ما زلت تذكر دروس القانون.

قال يلمح إلى شيء حدث لي مع زوجتي لا يعلمه سوانا، فضحكت وكانت هذه آخر ضحكة أضحكها لوقت طويل.

وإذ نحن في حديثنا، وقف الشاب المسطول وصديقه صاحب اللكنة القبائلية ومعهما ثلاثة آخرون واصطفوا يتقدمهم الشاب المسطول يقيم الصلاة، في حين قام الشاب ذو اللكنة القبائلية وصلى بهم، كل ذلك وأنا أنظر إليهم وفمي فاغر من فرط الدهشة.

حين انتهوا من صلاتهم، انحنيت على الشاب المسطول وهمست له:

الله يقبل.

أجابني وهو يضنني جادا في دعوتي له:

أجمعين.

ثم أضاف:

لم أرك تصلي.. لو أنك تفعل فقد يشفيك الله.

يشفيني الله؟!

لا عليك، (قاطعني)، فأنت تعلم أن الصلاة تذهب بالوسوسة وتريح العقل.

ثم أضاف:

إلا إذا كنت تمثل على الشرطة لتفلت منهم.

لم أفهم من كلامه شيئا، ولم أحاول أن أستفسر عن معنى كلامه

facebook.com/the.Boooks

الغريب، فهذا ما يفعله الكيف عادة في من أدمنه، ولكنني ومع ذلك سألته:

كيف يمكنك الصلاة وأنت لم تغتسل حتى؟

ومن قال لك أنني لم أغتسل، ففي هكذا مكان يقوم التيمم مكان الاغتسال.

ابتسمت له وعدت للحديث مع إسماعيل والمؤمنون الجدد من أصحاب المسطول يبحلقون فيّ، يتغامزون ويتهامسون بكلام لم يصلني منه إلا " ربي يشفيه".

وعلى هذه الحال أمضيت بقية النهار جالسا في مكاني لا أتحرك، إلا حين كنت أخرج إلى المرحاض، فقد تملَّكني هاجس ألا أجد مكانا أنام فيه تلك الليلة، بعد أن أفرَغَتْ سيارات الشرطة المزيد من المحبوسين، حتى لم يبق في الزنزانتين مكان واحد يصلح للوقوف، وعدا ذلك لم يحدث شيء يستحق الذكر، مجرد ثرثرات لقتل الوقت في انتظار يوم جديد.

وما دام الأمر كذلك، فلا بأس أن أحدِّثكم عن نفسي.. اسمي، لا يهم. مجرد اسم لا معنى له، ككل الأسماء في الغالب، علامات تفرّقنا عن بعضنا وقت ما نرغب في مناداة بعضنا، أو حين نريد تملُّك شخص آخر، إذ يكفي أن نمنحه اسمنا ليمنحنا نفسه. وعلى كل حال فقد أَمنحُني اسما لاحقا، ولكن ليس الآن، لاحقا ربما، حين يتبيَّن أن لاسمي معنى غير الذي دفع بأكبر أشقائي بوعلام ليلحَّ على والدي ليعطيني اسما بنفسه، إلا أن أبي سرعان ما نسيَه حين همَّ بتسجيلي

facebook.com/the.Boooks

في مصلحة البلدية، كان اسما غريبا عليه، لم يكن اسما جزائريا ولا تركيا ولا حتى قبائليا، اختلسه من إحدى الروايات المشرقية التي كان يقرأها، نسِيَه أبي حين همَّ موظف البلدية بفتح سجله الضخم، كان ذلك في شتاء 1974، لذلك اختار لي اسما كان قد حمله معه من مسقط رأسه في "عين طير الزين"، لأحمله بدوري حتى نهاية العمر، ولا يهم إن كنت أحبُّه أو أمقته، ما دمت لم أختره منذ البداية، مجرد اسم يميِّزني عن إخوتي الثمانية.. "كثيرة الأشياء التي لا نختارها ونحملها معنا، أسماؤنا، أشكالنا.. عوائلنا.. ساعات موتنا".

حكت لي جدتي أن أبي كان يتوجَّس خشية من أن أُولدَ أنثى، لذلك فعل ما بوسعه ليكون يوم ازديادي في ولاية أخرى، أما أمي فقالت لي إن هذا الخوف لم يتملَّكها لأنها كانت تعلم بجنسي قبل ولادتي، فقد كنت تاسع أولادها ولم تكن تملك من الذكور إلا ثلاثة، فكان لابد أن أولد ذكرا، بهذا تنبّأت المرأة العجوز.

كان إيمان أمي بنبوءة المرأة العجوز إيمانا مطلقا، لم يتزعزع حتى حين أُصبت في شهري الثاني بالصفاير الذي استمر معي حتى شهري السادس، فحين كانت جدتي توبخها بسبب لامبالاتها بمرضي تقول لها "سيشفى بنا أو بغيرنا"، وظلت على لامبالاتها حتى يوم كدت أفارق الحياة لولا بركات سيدي احمد بن يونس خال أمي، ففي خريف عام 1975 توقفتُ عن التنفس لدقائق حتى ازرقَّ جسمي، ليلتها كان سيدي احمد بن يونس في ضيافة أبي، فأسرعتْ إليه شقيقتاي وردية وأم السعد تصرخان، وقد حسباني قد قضيت نحبي، فحملني ونزع عنِّي ملابسي ثم مدَّدني على الأرض حتى استوت عليها، وأمي تصيح به أن يتركني، ثم فتح فمي وبصق فيه ثلاثا ومسح جسمي بكفه سبعا وهو يقرأ شيئا غير مفهوم، ثم غطّى وجهي بيمناه وهو

facebook.com/the.Boooks

يقـرأ شـيئا أخـر غير مفهوم، ومـا إن رفع كفّه حتى عدتُ إلى الحياة، فـراح يقـول "يكفـي الله من عنده من الملائكة، أراده فشـفعت دموع جدّته لديه وبركة الصالحين".

وتضيف شقيقتي الكبرى وردية أنها سمعته يقول "لن يموت إلا في الأربعين، هذا ما أمهله الله".

وتحكـي جدَّتـي أيضـا أنني لم أتحـدِّث ولم أمش إلا في الثالثة من العمر، ولم يظهر لي ضرس ولا سـن حتى بلغت الرابعة، ولعلَّ السنين فعلت فعلتها في ذاكرتي ولم أعد أذكر عشرات القصص التي حكتهـا لـي جدتـي وأمي، ولعل رغبتي في أن لا أكون مختلفا دفعني لأنساها. كل ما أذكره، حقيقة، أنّني لم أكن مختلفا عن أقراني، كنت ألعب الكرة في سن الرابعة ولا أذكر أن أحدا من أصدقائي ذكر شيئا عن أسناني أو عن مِشْيتي أو عن أي شيء آخر، لا أحفظ في ذاكرتي شـيئا يبرر هذه الهالة التي أحاطتني بها أمي ويما عيشـة، عدا رائحة "الجاوي" والبخور الذي ميّز بيتنا.. مشهد أمي مقعمزة أمام الكانون تصهر قطعا من الرصاص ثم تفرغها في المهراز لتتشكل في كل مرة في شـكل غريب.. التمائم والحرز التي غالبا ما كنت أكتشـفها داخل وسادتي وتحت فراشي.

لا شـيء ميَّـز حياتـي، عـدا ربمـا تأخُّـري فـي كل شـيء، فلـم أدخل المدرسة إلا في سن السابعة، ولم أختن إلا في العاشرة، ولـم أتعلـم الفرنسـية إلا فـي الثانوي، ولم أحصل علـى الباكلوريا إلا بعد أربع مرات، ولكن سـرعان ما اسـتوت حياتي واسـتقرت بعد دخولي الجامعة، بل كنت أول من يدخل في عائلتي حرما جامعيا

facebook.com/the.Boooks

- 4 -

في صبيحة السبت أيقظنا الشرطي المناوب باكرا، وأمرنا بالاستعداد لمغادرة الكافينياك نحو المحكمة.

كان عددنا وقتئذ يتجاوز الخمسين، فقد أحضرت سيارات الشرطة في ليلة أمس أكثر من عشرين موقوفا، بين سارق ومسطول ومتشرد، لذلك فقد استغرق خروجنا أكثر من ساعة ونصف الساعة، معظم هذا الوقت قضيناه في طابور الدخول إلى المرحاض.

بين هؤلاء شاب في نهاية الثلاثين، أسمر، هزيل الجسم، جاءت به الشرطة في حوالي الساعة الثانية صباحا، كان يفوح برائحة الويسكي رغم ما بذله من جهد لإخفائها بما وضعه من عطور لطّفت من رائحة المكان.

وعلى خلاف ما كنا نشاهده كلما دخل أي محبوس علينا، لم يكن هذا الشاب حين دخل ردهة الزنزانات مقيد اليدين، كان يسير وبجانبه رجل في الأربعين يحمل جهاز إرسال أسود وخلفهما شرطيان بالزي الرسمي، كان الرجل يلف ذراعه حول كتفيِّ الشاب وهو يهمس له، والشاب يذرف دمعا خفيفا يحاول مسحه كلما بلغ وجنتيه.

ما إن بلغا مكتب الشرطي المناوب، قام الرجل ذو الأربعين برفع كرسي كان خلف المكتب ودعا الشاب للجلوس، في حين انزوى بالشرطي المناوب وأخذا يتهامسان.

facebook.com/the.Boooks

وإذ ذاك، التحق به الشرطيان المرافقان له، فقال أحدهما موجها كلامه للرجل ذي الأربعين:

- حضرات، علينا أن نغادر الآن.

قال ذلك وكأنه يستأذنه.

التفت إليه الرجل ذو الأربعين ورمقه بنظرة حادة، جعلت الشرطيين يتراجعان إلى الخلف.

عاد الرجل إلى محادثة الشرطي المناوب، وكان يبدو من حركات يديه وطريقة همسه أنه يطلب معروفا ما من الشرطي المناوب الذي لم يكن يفعل إلا هز رأسه إيجابا. وإذ ذاك أومأ الرجل للشرطيين "أن تقدما" وهو يرفع صوته موجها كلامه إلى الشرطي المناوب:

هذه بطاقتي الشخصية.. "وأعطاه بطاقة زيارة بيضاء من النوع المعروف باسم الكويفري".. وكما قلت لك، أنت الآن تملك صديقا.

ثم تقدم إلى الشاب ومد إليه يده ليصافحه وهو يقول:

- كل شيء يسير كما أخبرتك، وغدا تبيت في دارك إذا التزمت بما اتفقنا عليه.

هز الشاب رأسه بما يفيد الموافقة وهو يصافح الرجل ذا الأربعين، في حين كان الشرطي المناوب يوقع أوراق التسليم.

بدا لي الأمر غريبا، خاصة وأن الشرطي لم يكن يفترض به توقيع أي شيء قبل أن يسلمه الموقوف منقولاته، ولكن الشرطي وقّع الأوراق دون أن يتسلم شيئا، والأدهى أنه لم يدوّن معلومات

facebook.com/the.Boooks

الموقوف الجديد في سجله الضخم.

حين غادر الرجل كان الشاب لا يزال جالسا في مكانه، بدا مرهقا، ولكن السهر لم يكن السبب الوحيد في إرهاقه، فثمة شيء كان يشغل تفكيره أيضا.

أدخل كفه في جيب سترته الجلدية وأخرج علبة سجائر من نوع "مارلبورو لايت"، وولاعة " زيبو" وأشعل سيجارة وأخذ يدخن بنهم كبير. لم تكن الرغبة في التدخين ما جعلته نهما بقدر ما كان القلق الظاهر في عينيه، وإذ هو على حالته تلك، بادره الشرطي المناوب يسأله:

- هل حدث الأمر كما أخبرني أخوك؟.

- أخي؟!..

رد الشاب وقد بدا متفاجئا، ولكنه استدرك نفسه بابتسامة متكلفة، جعلته يشعر بوخز الجرح الذي أصيب به حاجبه الأيسر، حيث كان يضع ضمادة طبية رفيعة.

- تماما مثلما أخبرك.

أجاب الشاب وقد بدا عليه شحوب مفاجئ.

- ربما تريد أن تستريح..

قال الشرطي وقد لاحظ شحوب الشاب الذي بالكاد استطاع أن يهز رأسه "نعم"، فقام الشرطي وفتح الزنزانة التي كنتُ فيها، وتبعه الشاب الذي كان ينقل خطاه بتثاقل ظاهر، فدخلها وقبل أن يقفل الباب خاطبنا بنبرة المتوسل:

- من فضلكم، أفسحوا له مكانا لينام فيه فهو مريض كما ترون.

facebook.com/the.Boooks

ولـم يتزحـزح مـن أمام الباب حتى تأكد أن الشـاب وجد مكانا بيننا.

فـي الحقيقـة كان الحاج المنور من وسـع لـه ليجلس بينه وبين النذير.

فـي الصبـاح وبينما كنا نحضر أنفسـنا للخـروج، عاد الرجل ذو الأربعيـن يحمل للشـاب القهوة والحليـب وبعض الحلويات وكذلك علبتي مارلبورو لايت. أجلسـه على المكتب وظلا يتحادثان والرجل لا يكف عن طمأنته. ثم غادر وهو يقول له "نلتقي في المحكمة".

وبمجرد انصرافه عاد الشـاب إلى الزنزانة وجلس بجوار الحاج المنـور، وأخـذا يتهامسـان وكأنهمـا علـى معرفة قديمة. واسـتمرا في همسـهما حتى بدأ الشـرطي المناوب في المناداة على الذين يتوجب عليهم الخروج.

خرج أول فوج وكان فيه إسماعيل، ثم تتابعت أفواج المحبوسين حتى حان دوري، وكان معي في الفوج النذير والحاج المنور وأربعة آخرين، في حين بقي الشاب آخرنا.

ركبنا سيارة "فورغونات" وكان معنا ثلاثة رجال شرطة، السائق وشـرطي يرتدي الزي الرسـمي من الأمام، وشـرطي في لباس مدني جلـس فـي الخلـف، فـي حين كدس سـبعتنا في الخلـف يفصلنا عن الشـرطي سـياج حديـدي يفتـح من جهتـه. وكان عمل الشـرطي ذي اللباس المدني أخذ معلوماتنا وتفسـير الإجراءات التي سـنخضع لها

facebook.com/the.Boooks

عند بلوغنا محكمة سيدي أمحمد.

رغم أن المسافة بين محكمة سيدي أمحمد ومحافظة الكافينياك لم تكن كبيرة (أقل من كيلومتر)، إلا أن الوقت الذي استغرقَنا تجاوز العشـرين دقيقة بسـبب الازدحام، خاصة وأنه كان أول يوم عمل في الأسبوع. لذلك كان لا بد من بعض الثرثرة لقتل الوقت.

قال النذير يحدث الحاج المنور:

- هل صدقت قصة ذلك الشاب؟

- بعد أن شاهدت ما حدث البارحة، أجنح إلى تصديقها.

أجـاب الحـاج المنـور وهـو ينظر صوبي وكأنه يأمل أن أشـارك في حديثهما.

- هذه عوالم لا نعرفها، أبعدنا الله عنها.

- صدقت، عوالم الكباريهات لا خير فيها على الإطلاق.

قال النذير بنبرة لم أستشعر منها أي صدق.

واسـتمرا فـي حديثهمـا دون أن أسـتبين قصـة الشـاب التي كان يتحدثان عنها، فغلبني الفضول:

- ماذا حدث له بالضبط؟

ثـم سـرعان مـا ندمـت وأنـا أرى الحاج المنـور وصاحبه النذير ينظران إليّ وقد ارتسمت على وجهيهما ابتسامة شفقة.

يبدو أنك اليوم بخير يا ولدي.

قال الحاج المنور وهو يحتفظ بابتسامته تلك.

- بخير، عدا هذه القيود وهذا الذل.

قلت بصوت الناقم المتذمر.

- لا عليك يا ولدي، محنة وتمر إن شـاء الله، ولكن لا تفكر

facebook.com/the.Boooks

في الأمر كثيرا، فلا أحد يحب أن يراك كما كنت البارحة.

- البارحة؟!

- نعم البارحة، يبدو أن الأمر أثر فيك كثيرا.

- ربما.. ربما، ولكن لم تقل لي ما حكاية ذلك الشاب.

- نعم، نعم.

تأنى وكأنه يحاول أن يتذكر القصة.

- كان ذلك شاب ملاهي، اعتاد أن يقضي نهاية كل أسبوع في ملهى يسمى قرطبة.

قاطعته:

- نعم أعرفه يقع في هذه النواحي.

الحقيقة لم أكن أعرفه فحسب، فقد قضيت فيه سنوات الجامعة أعمل فيه نادلا، وفيه شربت أول كأس ويسكي. "آه على تلك الأيام الجميلة". قلت لنفسي وكدت أن أنسى موضوع حديثنا لو لم يضف الحاج المنور:

- مهما يكن، حدث شجار بين صديقه وبين أحدهم على فتاة هوى، صديقه ذاك الذي رافقه إلى الكافينياك.

كان يقصد الرجل ذا الأربعين.

- المهم أن الشجار أفضى إلى إصابة الفتاة بجروح خطيرة، تسبب فيها صديقه بعد أن فضلت غريمه عليه.

قاطعته مرة أخرى:

- وإذن ما دخل ذلك الشاب؟

- لا يد له فيما حدث للفتاة، ولكن صديقه ضابط سامي في

facebook.com/the.Boooks

جهاز الأمن و..

- لا تكمل فهمت الآن.

قاطعته وقد انقبض قلبي لسماع هذه القصة.

وما هي إلا دقائق حتى بلغنا محكمة سيدي أمحمد، فدخلناها من الباب الخلفي، حيث يوجد مستودع لا تدخله إلا سيارات القضاة والسيارات المحملة بالمساجين، وكانت هذه كلما تفرغ حمولتها تنسحب لتترك المكان لغيرها.

نزلنا من السيارة ونزل معنا الشرطي المرافق للسائق والشرطي ذو الزي المدني، في حين انسحب الآخر بسيارته ليركن بعيدا، فسبقنا الشرطي ذو اللباس المدني وكان يحمل ملفاتنا، في حين تخلف الآخر ليكون آخرنا، ثم صعدنا سلَّما ضيقا يربط بين الطابق الأرضي وبقية الطوابق العلوية، وحين بلغنا آخره عرجنا يسارا حتى بلغنا بابا خشبيا يقف عنده شرطيان، وبجواره مكتب ترك بابه مفتوحا، فتكشف عن رجلين وامرأة متحجبة يعملون بين أكوام من ملفات تكاد تبلغ السقف من كثرتها.

فكَّ الشرطي قيدي ثم فتح الشرطيان الواقفان عند الباب الخشبية الحجرة التي كانا يحرسانها وزجا بسبعتنا داخلها، واحدا تلو الآخر، وكنت آخر من دخل الحجرة، ولأنها كانت ممتلئة عن آخرها، فقد اضطرا إلى دفعي داخلها دفعا، فكان أحدهما يضغط على ظهري، في حين كان الآخر يحاول غلق الباب من خلفي بكل ما أوتي من جهد.

كانت غرفة من مترين على مترين، حشر فيها ثلاثون رجلا

facebook.com/the.Boooks

يلتصقـون كقطـع مـن اللحـم الفاسـد النتـن، محشـورين فـي جـدث واحـد، ضيـق كصـدور هؤلاء الذين قـرروا أن أكون مدانا حتى تثبت براءتي، مظلم كقلوبهم الحجرية المتوقفة عن النبض، بارد كضمائرهم المجمدة إلى حين تموت.

)يـا إلهـي ما الـذي اقترفتُه حتى تجزيني بعدالتهم، حتى تعاقبني بعدلهـم؟.. ألأننـي لـم أُقِم لك صلاة قـط، أم لأنني لم أصم يوما؟.. ربما يا إلهي لم أصلِ ولم أصم، ولكنَّني بلغتُ ما أمرتَنا به، خشيتك، أحببتك حتى صرتَ منِّي كما تحب، فثملت بحبك يا إلـهي وصحوت بخشيتك، فما جدوى تلك الحركات؟ وما غاية ذلك الجوع؟.. أليس كل ذلك لنكون لك مثلما تشـاء، وقد كنتُ ومازلتُ ملكك، مثل ما أردتنـي.. أَلِذنوبـي يـا إلهـي تعاقبنـي بهم؟، وأنا لـم أذنب إلا لأتوب إليك فتتوب علي، وأنا لا أذنب إلا وأنا أعرف أنك سترحمني وتغفر لي..(.

شعرتُ برغبة في البكاء، إذ كيف انتهتُ إلى هكذا حال، وحينها سـرى في جسـدي شـعور مثل الذي يعتريني كلما دخنت سـيجارة.. شـعرت بارتخـاء غريب وسـعادة غير مبررة.. تجـردتُ مني.. تركتُني بينهم ملتصقا ورائحة العرق والأفواه والأرجل والنعال لا تُنَفِّرُني بقدر مـا تحملنـي إلى ذكرى قديمة جديـدة، ذكرى التصاق كهذا، ازدحام، اكتظـاظ، أجسـاد تتلاطـم، تتداخـل فيمـا بينهـا، حتى تفقـد الأعضاء هويتها، فتتجاهل الأجساد المنتمية إليها، إلى حين بلوغ القطار محطته الأخيرة.

facebook.com/the.Boooks

(تذكرين أمال حين احتميتِ بجسدي يومها، قلتِ لي بصوتك الخجول "لا أريد أن يلتصق بي هؤلاء"، وأشرتِ إلى وجوه حاصرتنا أجسادها، تشتهيكِ كما يشتهي الأعمى النور، فدفعتكِ إلى زاوية بجانب الباب، وأسندت ظهركِ العازل المعدني، ثم ما لبثْتُ أن حاصرتُك وأطبقتُ الحصار..

كنت أشعر بنظرات الآخرين تحاول أن تغتال حلمنا الذي انطلق للتو، لم يعد يفصلنا عن البداية إلا شبر من الهواء، يفصل جسدينا الراغبين الراهبين، شبر من الفراغ بين جسدين يحاولان التوحّد، يا ألله، ما أجلَّ لحظة الخشوع تلك، حين انسلخنا عن هؤلاء الناظرين إلينا، لتنصهر نظراتهم الحاسدة بنارنا التي اشتعلت للتو.. حين بدأنا نضغط الفراغ الذي بيننا، حين تقلَّصت المسافة من شبر فرضه الحياء عليكِ، إلى أصبع فرضتُه على الحياء.. بدأ لونكِ حينها يتغير، أتذكر وجهك الثلجي حين تورَّد حبّا، حياء وحرارة، أحسستُ برعشتكِ تسري فيك وقد تماوج جسدك الرَخوي معها على ذبذبات حركة القطار.

الزحمة ورغبتنا في أن نصير واحدا، ملأتا الفراغ الذي بيننا، لنلتحم، نلتصق في لحظة الانصهار، لحظة للشيطان، لحظة لله، لحظة نودي إليّ للخروج من الجَدَث(.

بعد نصف ساعة فُتحَ الباب وخرجت، عرِقا، مُتعبا، سَاخطا على نفسي، وكأنني انتهت للتو من مضاجعة امرأة باردة.

كان الشرطي ذو الزي المدني في انتظاري خارجا، فأخبرني أن الأمر الصادر ضدي مصدره محكمة الحراش، لذلك فقد تقرر اقتيادي

facebook.com/the.Boooks

إلى هناك، وهناك سيتقرر مصيري.

)كان لطيفا في محادثتي، حتى تخيَّلت أن لا خطر في التهم الموجهة إليّ(.

هذه المرة عدت بمفردي مع الشرطي إلى السيارة، حيث وجدنا الشرطيين الآخرين في الانتظار داخل المستودع التحت أرضي، فأمرهما الشرطي ذو الزي المدني باقتيادي إلى محكمة الحراش وسلمهما الأمر بالتسليم وكذا بقية ملفي، ثم انصرف، في حين بقيت بمفردي معهما، وإذ ذاك لمحت إسماعيل يخرج من المحكمة بمفرده، فأدركت أنهم أخلوا سبيله، فكما قال لم تكن تهمته خطيرة.

أمضينا ما يزيد عن الساعة للوصول إلى هناك، كانت الطرق مزدحمة بالسيارات، أغلبها جديدة تحمل على زجاجها الخلفي ملصقة مكتوب عليها بالأرقام "ثمانون"، تماما كسيارتي التي اشتريتها بالتقسيط مثل معظم الجزائريين، بعد أن فقدت الأمل في امتلاك شقة في العاصمة، مثل هؤلاء الذين يملؤون الطرقات أو على الأقل مثل معظمهم.

يبدأ الطموح كبيرا ولكنه سرعان ما يتقلص، وكلّما تقدمنا في العمر تتركز خياراتنا على الأقرب فالأقرب، ثم على الممكن فالأكثر إمكانا، وسرعان ما تنعدم خياراتنا لنحاول اقتناص الموجود فحسب، ومع هذا تجدنا رغم تحسّرنا في داخلنا نتظاهر بالرضا على ما نحن عليه، ندّعي أن ما انتهينا إليه مآل مرسوم لنا قبل خلقنا، منذ الأزل، علاّقة نعلق عليها خيبتنا، فشلنا، انكساراتنا.. أسميناها ببركة السماء، القدر.

facebook.com/the.Boooks

عادة لا يكون الطريق إلى الحراش مملا ولا مجهدا، لأنه طريق مستقيم لا انعراجات فيه، كما أن الممهلات الزفتية المميزة للطرق في الجزائر تكاد تكون منعدمة عليه. وهي عبارة عن حواجز مصنوعة من الزفت، يتراوح ارتفاعها بين الخمسة والعشرة سنتيمترات وبعرض لا يتجاوز العشرين سنتيمترا، تهدف- كما يدل اسمها- إلى إجبار السائقين على التقليل من السرعة، وهي خلافا للممهلات المسمارية والمتحركة، لا يمكن إزالتها إلا بحفر الطريق، ورغم ضررها هذا إلا أنها الأكثر استعمالا في الجزائر.

قلت أنه عادة لا يكون الطريق إلى الحراش مملا ولا مجهدا، ولكنه كان في ذلك اليوم على عكس العادة، بسبب حواجز المراقبة التي نصبتها مصالح الأمن، فبعد تفجيرات قصر الحكومة، أصبحت جميع الطرق تعرف نفس الازدحام، وأصبح الوصول إلى أي مكان من العاصمة أو ضواحيها يتطلب جهدا ووقتا مضاعفين.

كنا نقترب من الظهيرة حين بلغنا محكمة الحراش، أخرجني الشرطي ممسكا بطرف القيد، في حين كان طرفه الآخر حول معصميه.. يتقدم وأنا أعرج خلفه، فقد كنت بالكاد قادرا على اللحاق به، إذ عاودني ألم ساقيّ، فللدوالي أوقات كأوقات الضرس المسوّس، لذلك فقد كان مضطرا- بين الحين والآخر- إلى شدي بقوة وسحبي إليه، كما يسحب كلب متردد في إتباع صاحبه.

"تنقسم محكمة الحراش إلى ثلاثة أقسام، قسم يقابل مجمعا سكنيا يعرف باسم الأشلام، وهو مجموعة من العمارات تم بناؤها في الحقبة الاستعمارية، تتميز بمداخلها المتعددة وارتفاعها مقارنة

facebook.com/the.Boooks

بما تم بناؤه لاحقا من عمارات، يحوي شبابيك توفر بعض الخدمات الإدارية للمواطنين لاسيما المتعلقة باستخراج شهادتي الجنسية والسوابق العدلية، كما يحوي على مكتب تابع للنيابة العامة يستقبل فيه وكيل الجمهورية ومساعديه المحبوسين والمتهمين. وبمحاذاته رواق ينتهي بسلم يسمح بولوج الطوابق العلوية، أين تقع مجموعة من المكاتب مختلفة المهام، والممثلة للقسم الثاني للمحكمة.

في حين يحوي القسم الثالث الموجود في الطرف الآخر للبناية، قاعات الجلسات وهي فيما أذكر ثلاث قاعات أو أربع، تختلف في الحجم والسعة، كما يحوي هذا القسم على مجموعة من المكاتب المتعلق عملها بالأحكام".

دخلنا المحكمة من الجهة المقابلة للأشلام، فوجدنا جمْعا غفيرا من رجال الشرطة وجمْعا أكبر من المحبوسين ينتظرون دورهم للدخول على وكيل الجمهورية، كانوا يشكِّلون طابورا غير منتظم يمتد من باب مكتب الوكيل ويستمر على درجات السلم الصاعد إلى المكاتب العلوية، وكان على باب الوكيل رجل في الخمسين نحيل بشنب غليظ أشيب، كثير التدخين، لا يكاد ينتهي من سيجارة حتى يشعل أخرى، أسنانه بيضاء بياضا لا يليق بمدخن شره، في الغالب كان يضع طاقم أسنان اعتاد عليه منذ زمن، حتى التحم بلثته دون أن يلتحم..

كان يغدو ذهابا ومجيئا من باب الوكيل حتى آخر السلَّم وهو ينظر إلى المحبوسين بشيء من الترفّع، وبين الفينة والأخرى يتوقف عند أحدهم يسأله عن تهمته، مبديا تعاليق على شاكلة "مليح".. "خلاص عليك".. "اللّي جابوه رجليه الحديد ليه". في الحقيقة

facebook.com/the.Boooks

خلته مجنونا ولا أزال أخاله كذلك، إلا أنني علمت لاحقا أنه كاتب ضبط.

في تلكم الأثناء، أخذت نماذج بشرية جديدة في التوافد: شباب، كهول يرتدون بذلات رخيصة وربطات عنق، كانوا يتظاهرون بالمرور فحسب، ثم لا يلبثون أن يفتحوا محافظهم المنتفخة، مخرجين منها جببا سوداء يلبسونها وهم يتفحصون وجوه المحبوسين على طول الطابور، كان الواحد منهم لا يلبث أن يناديه أحد المحبوسين "أستاذ" حتى يتقدم نحوه، مسوِّيًا هندامه، نافخا صدره، دافعا بكتفيه إلى الأمام، وفي ظنه -ربما- أنه يضفي على نفسه بعض الوقار. كان يتقدم نحو مُوَكِّله المفترض بخطى ثابتة بطيئة يميزها صوت الحديد الصادر من تحت حذائه الصيني المدعم بصفيحة من الحديد، لبتحوَّل رواق المحبوسين إلى ما يشبه محل حدادة بسبب ما تصدره نعال هؤلاء المتقدمين بوقار يخفي لهفتهم على زبون قد يوفر لهم ثمن بعض علب السجائر؛ ولربما ثمن حذاء صيني جديد..

كان كلما دخل محبوس على الوكيل يصدر من المكتب صراخ، صراخ بصوت واحد، كان هذا صوت الوكيل مثلما تبيّن لي لاحقا، في حين كان كلما خرج من عنده واحد يصفَّد ويُقتاد خارجا. استمر الوضع على ما هو عليه ساعة أو يزيد، حتى انصرف الوكيل ليتغذى، ثم لم تمرَّ ساعة أخرى حتى عاد وعاد الصراخ معه.

في الثالثة مساء أمر الوكيل أن اقتاد إلى الطابق الأعلى لينظر هناك في ملفي، وإلى هناك ساقني الشرطي المصاحب لي.

ما أن ولجت مكتبه حتى طلب منه الوكيل أن ينزع عنّي الأصفاد،

facebook.com/the.Boooks

ثم نظر في ملفي وقرأ اسمي، لقبي وبقية المعلومات المتعلقة بي، ثم أخـرج أنفـه مـن الملف ورمقني بنظرة حـادة، أكاد أقول إنه اصطنعها لضرورات الوظيفة.

كان في منتصف العَقد الثالث، لا يتعدى طوله المتر والسبعين، ممتلئ الجسـم إلى درجة السـمنة، وجهه مسـتدير أحمر مرقط، يكاد يكون أبرصا لولا بعض الفروق، ذكرني وأنا أنظر إلى وجهه بسيلاس في رواية شيفرة دافنتشي، إلا أنه كان أقل قوة وأقل إيمانا بعمله منه. يتوسط وجهه أنف بارز محدّب كأنف زوجتي، أما صوته فكان رخوا رغم ما كان يبذله من جهد لتغليظه.

- لقد صدر ضدك حكم غيابي، تعلم ذلك..

- لا

- ألم يصلك أي استدعاء؟

- لا. لم يصلني شيء.

- لكنك كنت تعلم بصدور أمر بالقبض عليك.

- ولمَ تظنني أعلم بذلك؟

- لأنه صدر ضدك حكم غيابي.

- لكن لم يصلني شيء.

- هذا ما تقوله أنت.

قاطعته:

- ولكنها الحقيقة.

- قلـت. هـذا مـا تقولـه أنـت، المهـم هـل تريـد أن تعـارض الحكم؟

- بالطبع، ولكن ما هي قضيتي؟

facebook.com/the.Boooks

"لم يقل شيئا".

ختم ووقَّع ورقة وسلّمها للشرطي، مشيرا إليه أن يأخذني، ففعل الشرطي دون أن يعلِّق، بعد أن أعاد إليّ القيد، ثم دخل بي مكتبا آخر، وسلَّمني المسؤول فيه وثيقة المعارضة لأوقِّعها، ثم عدنا أدراجنا إلى سيارة الشرطة، وفيها سلّمني الشرطي الوثيقة التي ختمها الوكيل منذ حين.

- لا تضيّعها، ستحتاج إليها عند انتهاء الأمر.

هكذا قال "انتهاء الأمر"، وكأن النهاية لحظة يمكن بلوغها، وكأنها مكان في مكان ما، لطالما تساءلت كيف نحافظ على إيماننا، مهما كان، ونحن نؤمن بالنهاية، كيف نؤمن بالآخرة ونستمر في القول إن نهاية الحياة الموت، كيف نؤمن بالقضاء ونستمر في القول إن نهاية أفعالنا جنّة أو جحيم..

" نهاية الأمر".. هكذا قال. إن كانت النهاية حقيقة، فلمَ لم أجدها لأمنحها أمي حتى تتوقف عن الإيمان بنبوءة المرأة العجوز "واحد ظالم ولاخر عالم، واحد أعمى ولاخر يرفدو الماء"، لماذا استمرت هذه اللعنة تقتات من جسدي ومن روحي اثنين وثلاثين عاما، ألأنني كنت أعتبرها الوسيلة الوحيدة لإبقاء أمي على قيد الحياة، ألأنها كانت آخر ما يبقيها حيّة بعد رحيل سناء، أبي، يمّا عيشة إلى العالم الآخر، أكانت هذه الكلمات آخر ما يبقيها صامدة بعد رحيل أخي الأكبر بوعلام إلى عالم البالغين، يوم أدرك أننا أصبحنا عالة عليه، وأنّنا لم نعد نليق به كعائلة بعد أن كوَّن عائلته.

في ذلك اليوم جمعنا بوعلام أنا وأمي، إبراهيم، مناد، تسعديت وحمامة، أما أم السعد ووردية فكانتا قد تزوجتا من قبل، جمعنا في

facebook.com/the.Boooks

الغرفة المتبقية من شقّتنا، في حين بقيت زوجته في الغرفة الأخرى، غرفتها.

قال لنا أن الأمر مهم ولا يقبل التأخير، فاحتشـدنا جميعا أو ما تبقـى منـا، كنـا نحبـه وفي نفس الوقت نخشـاه، فقد كان أكبرنا، ومن الطبيعي أن يرث عن أبي بعد رحيله الحب، الهيبة والاحترام.

لزمنـا وقـت لنصمـت جميعا، ولكن سـرعان ما حطّ الطير على رؤوسنا حين تفوّه بأول جملة:

- خلاص، راني بعت الدار.

لم يتفوه أحد منا بأي كلمة، عقدت الدهشـة ألسـنتنا، حتى أمي التي لا أذكر لها يوما هادئا دون صراخ، ابتلعت لسانها، ولكنها سرعان ما التقطت بعض كلمات لم تستطع الدهشة أن تمنعها من الخروج:

- بعت الدار، كيفاه؟!

صاحـت بذلـك ثـم لفَّها الصمت من جديـد، رغم أنه بدا عليها أن كلاما آخر لا زال عالقا على لسانها.

ومن غير أن يمنحها فرصة للعثور على كلمات أخرى، انصرف أخي وهو يقول:

- عندكم شهر قبل أن يأتي المالك الجديد.

وأضاف حين بلغ غرفته:

- هـذه داري، أمّكـم تعلـم بذلـك وتعلـم لمـاذا كتبهـا أبـي باسمي.

ثم اختفى خلف بابه، وهكذا ظل إلى هذه الساعة.

بعد عشرين يوما حَمَلنا حقائبنا ورزمنا وركبنا الحافلة في اتجاه برج اخريص، لم نحمل أثاثا، حملنا ما استطعنا حمله وتركنا العاصمة

facebook.com/the.Boooks

لأهلها ولأخي وزوجته على أمل أن نعود يوما.

يومها جلســت في الحافلة بجانب أمي، كان الحزن يمنعني من الحديث، فتأبّطتْ أمي ذراعي ووضعت رأسـها على كتفي وهمسـت لي: "هذا هو الظالم الذي تنبأت به العجوز"، ثم لم أشـعر بها طيلة الرحلـة إلـى البويـرة ومن هناك إلى حيـث تنام جدتي هانئة في قبرها ببرج اخريص، لم أشعر بها لولا ابتلال قميصي بدموعها ولولا ذلك اللحن، الأغنية التي كانت تغنيها..

facebook.com/the.Boooks

- 5 -

لـم يكـن الأمـل الذي استشـعرته فـي المحكمة إلا أمـلا زائفا، فمازلت أعيش الاحتجاز..

قلـت لنفسـي، وأنـا أحاول قراءة الوثيقة التي أعطانيها الشـرطي ليس رغبة في اسـتجلاء الأمر بقدر ما كان رغبة في أن أشـغل نفسـي بشيء ما.

أخرجـت سـيجارة وأشـعلتها، فأمرنـي الشـرطي الجالس بجوار السـائق أن أطفئها، غالبا لأنه كان ينفر من رائحتها، إلا أنني لم آبه. أخذت نفَسَا عميقا وكأنها آخر سيجارة أدخِّنها قبل الإعدام، فاستشاط غضبا وراح يسـبّني ويصفني بكل النعوت، كل ذلك وأنا مسـتمر في التدخيـن، أتبـع النفـس بالنفس، وأنا أجيـل النظر فيه دون أن يثير فيَّ غضبُه شيئا، لا أعرف ما أصابني لحظتها، حتى أنني اليوم لا أذكر ماذا كان يخرج من فمه من كلام، كل ما علِق بذاكرتي وجهُهُ المستشيط غضبا واسـترخائي غير المبرر. أمر السـائق بالتوقف وانتزع السـيجارة مـن بيـن أصابعـي وداسـها. أما أنا فتركته يفعل، لم أقـاوم، لم أعلِّق. وكأنني كنت غير معنيٍّ بغضبه.

كان قـرار الوكيـل أن أفـرغ الأمـر بالقبـض، يعني ذلـك في لغة القانونييـن أن أمضـي أيامـا في السـجن حتى يحيـن موعد محاكمتي، أي بعد يومين حسـب ما كان مسـجلا في وثيقة المعارضة، أقضيهما في سجن الحراش.

facebook.com/the.Boooks

لـم أكـن أتوقـع وأنـا أرى السـجن من زجـاج السـيارة أنه بهذه الهيبة، هيبة لم أشعر بها من قبل، فرغم العدد الهائل من المرات التي رأيتـه فيهـا، كانـت هذه أول مرة ألاحظ فيها جدرانه الزرقاء الشـاهقة والأسـلاك الشـائكة التـي تعلوهـا، ولأول مـرة أيضـا شـعرت بمدى اتسـاعه، مـا جعلنـي أفهم أخيرا لماذا يسـميه النـاس "ربعة كتارات" (أربعة هكتارات).

بجانـب البوابـة الرئيسـية الزرقـاء، مدرّعـة زرقـاء مركونـة على اليسار، يقف أمامها شرطيان يرتديان صدريتين واقيتين من الرصاص، يحمـلان جهـازي إرسـال ورشاشـين أوتوماتكيين، وعلـى بعد مترين منهما سـيارة شـرطة رباعية الدفع من نوع تويوتا، ركنت قبالة البوابة مباشرة، يقف أمامها شرطيان بنفس الأوصاف، وآخران جعلا البوابة خلف ظهريهما.

خصصـت هـذه البوابـة لشـاحنات المئونـة وللحافـلات الناقلـة للمسجونين وكذا لسيارات بعض مسئولي السجن.

بجوارهـا بـاب حديـدي من الحجم العـادي، يدخل منه حراس السـجن وبعـض المحبوسـين الذيـن تـم نقلهم بواسـطة سـيارات لا تحمل الإذن بدخول البوابة الرئيسية، يقف عليه شرطي يقوم بمراقبة الداخلين والخارجين منه.

أمـا علـى يمين البوابة الرئيسـية، فتوجد بوابـة كبيرة ولكنها أقل حجمـا مـن الأولـى، وبجوارهـا باب آخـر صغير يشـبه الباب الأول، يستعمل لدخول المدنيين من محامين وزوّار.

بلغنا سـجن الحراش، فأخرجني الشـرطي من السـيارة وجرّني مثلمـا اعتـاد أن يفعـل، أو مثلمـا بدأت أعتاد أنا أن أجرّ، موقف يفقد

facebook.com/the.Boooks

فيه الإنسان إنسانيته..

" أهـذا هـو الشـعور التـي شـعرتْ به عفاف وأنـا أجرّها في تَحْتُرْبَة معهد الكيمياء، المكان الذي اكتشفته بالمصادفة مع إسماعيل.. طابق أرضي لا يعرف مدخله سوانا.

فـي بـادئ الأمـر، كان مكانـا نتذاكر فيه، ثم تحول في سـاعات فراغـي إلى مكان للشـرب والكيـف، حتى تعرَّفتُ على عفاف، ملاك فقد أجنحته، شيطان لا يحمل شوكته، هكذا رأيتها في جلبابها الأسود الليلي المتدلي، ماسحا في تدليه قذارة الأرض، مانعا لنظراتي أن تنفذ إلى ما يخفيه.

أول ما رأيناها قال لي إسماعيل: "هذه فتاة سهلة".

لـم أعلِّـق حينهـا، بقيـت أنظـر إليها، ثم قلت لنفسـي: "بل أكثر من ذلك".

وبقيـت أيامـا أتربـص بهـا وأحاول الاقتراب منهـا، وكان لي ما أردت، فقد اشتركت وإسماعيل في حدس غريب من نوعه، كنّا نملك القدرة على اشـتمام رائحة اللحم الفاسـد، المتعفن، ولم تكن عفاف إلا قطعـة لحـم تعفّـن واخترقـه الدود، حاول أصحابـه أن يبقوه قابلا للبيع بأن وضعوه في واجهة المحل وزيَّنوه ولفُّوه في غلاف أسـود، ربما يستحسـنه من لا يخشـى العتمة أو من يحب السـواد، مثلما فعل إسماعيل حين تزوج منها، رغم علمه بما كان بيننا.

ربما أحبها..

ربما أشفق عليها، فتزوجها..

لست أدري. ولكنني عاهدته أن تبقى حكايات الطابق التحتي في الطابق التحتي، وعلى هذا تعاهدنا، وعلى هذا انتهت علاقتي بها.

facebook.com/the.Boooks

أحيانا، حين يخونني النوم كعادته، أفتح عيني على وجه زوجتي أمال، فيتخيل إلي أن النائمة بقربي عفاف، فلطالما كانتا تتشابهان، تشابه مخيف، فأمد يدي نحوها وألملم شعرها الأشقر المتموج بأصابعي، حتى أنفض النوم عنها، فتفتح جفنيها بتثاقل يجعل مجرد النظر إليها أقصى ما تبلغه النشوة، فتكشف عن عينين من الكريستال، تجمعان كل ألوان العالم في لون واحد، ثم تبتسم، فيكشف ثغرها عن أسنان من العاج الحليبي وهي تهمس "ما زلت مستيقظا حبيبي؟!"، وأنا مستمر في مداعبة شعرها، وفي جسدي رعشة لا أحلى منها.. أدنو منها أكثر فأكثر، حتى تمّحي الحدود، وينصهر جسدانا في جسد واحد، لا ذكر ولا أنثى، لا أنا ولا هي، جسد تجرد من أناه في سبيلنا نحن..

وإذ ذاك، أجدني أخطئ وأدعوها "عفاف"، فتبتسم وكأنها لم تسمع ما قلت، أو كأنها ارتضت أن تكون عفاف، في لحظة تشبه العمر، في لحظة تقيل اللحظة من قاموس الوقت..

كنت حين أزور إسماعيل في بيته، تقوم عفاف بخدمتنا، ورغم غيرة إسماعيل كانت عفاف تحضر صينية الشاي أو القهوة وهي متبرجة لا تضع شيئا على رأسها، ثم تختفي ولا تعود إلا حين أهم بالخروج لتودّعني.

في معظم الأحيان، كانت تضع الصينية دون أن تنظر إليَّ، بل ودون أن تسأل عن أحوالي وتنصرف، وحين أحرجها بالسؤال عن أحوالها تجيبني في عجالة وكأنها تركت طبيخا على النار تخشى احتراقه.

أعلم أنني كنت أذكِّرها بماضيها، وأغلب الظن أنها كانت تلوم

facebook.com/the.Boooks

نفسها عليه وتلعن أيام الطابق التحتي.

كثيرا ما شعرت بالأسف عليها، ليس لما فعلناه سوية- لأنه لا يؤسف عليه، فلا يمكن أن آسف على أمر منحني السعادة- آسف عليها لأنها مضطرة إلى الخضوع في مجتمع جعل من نفاقه مبادئ يسير عليها، فلم تكن وحدها لحما فاسدا، كنت أنا كذلك وما زلت، اسماعيل أيضا كان كذلك ولا يزال، لكن الرائحة في مجتمع كهذا لا تصدر إلا منها، من أمثالها، وكأن المضاجعة فعل فردي تقوم به المرأة وحدها، فحين تحرِّكها الشهوة تصبح فاسدة ثم سرعان ما تنزل في دركات الوصف المشين: عاهرة، ماجنة، مومس، غانية.. أما نحن فنكون فقط رجالا، لا شيء أقل، فالعيب ليس في الرجل مثلما كانت تقول يما عيشة، لا شيء يلطِّخ ثيابنا، سمعتنا، بل غالبا ما نصعد درجات الوصف الذكوري حين تكثر نزواتنا الجنسية لنصير "فحولا"، مجتمع منافق، نفاق في أبهى صوره.

ظل الشرطي يجرّني حتى بلغنا مدخل السجن، وهناك سلَّمني إلى الحارس وسلَّم الحارس ملفي بعد أن فك قيدي، ثم أدخلني هذا الأخير من الباب الصغير المجاور للبوابة الرئيسية، ثم عرج بي يسارا إلى ردهة تملؤها المكاتب، ومنها إلى غرفة كتلك الموجودة في محكمة سيدي أمحمد، لكنها أكثر ضيقا وازدحاما.

لم تمض نصف ساعة حتى نودي إليّ، فخرجت إلى الردهة أين تلقاني حارس في زى أخضر مائل للصفرة، واقتادني إلى مكتب من مكاتب الردهة، فتم قياس قامتي ووزني، وأخذوا بصماتي وتأكدوا من خلو جسمي من أي ندبة أو وشم، وسئلت كما سئلت سابقا

facebook.com/the.Boooks

عـن اسـمي واسـم أمي ووالـدي، إلا أنهم هذه المـرة منحوني رقما، قال لي الذي أعطاني إياه "هذا اسـمك الآن"، ثم أعادني إلى الغرفة الضيقة.

كان رقما من ستة أعداد (157324)

هكذا فقدت في لحظة إرثي الوحيد من أبي، وقويضت به رقما تسلسـليا، أصبـح فـي لاحـق الأيام يعني لي أكثر مما عناه لي اسـمي سابقا.

بعـد قرابـة السـاعتين، أخرجنـا الحـراس من الحجـرة الصغيرة، وأمرونا أن نسـير في طابور من صفين، وبدأنا في السـير برويّة تحت الأوامـر، حتـى بلغنـا مكاتب سَـلّمنا فيها حوائجنا مـن أحزمة ووثائق وبطاقات هوية ونقود، ثم عبرنا سـاحة واسـعة تتوسطها بوابة حديدية ضخمة وعلى يميننا لافتة مكتوب عليها "جناح النساء" غير بعيدة عن سـور ضخم تتوسـطه بوابة كتلك التي ولجناها للتو، لنجد أنفسـنا في ساحة أخرى حسنة التزفيت، فأمرنا باجتيازها فرادى، فكان الواحد منا لا تكاد قدماه أن تطأ أرض السـاحة الثانية، حتى يجد حارسـا يحمل جهازا لكشف المعادن فيمرره عليه، ثم يأمره بالوقوف غير بعيد، حتى مررنا جميعنا وأعدنا تشكيلة الصف، وحينها قام أحد الحراس بعدَّنا كأنه كان يخشى أن يضيع أحدنا بين البوابة وعتبة الساحة، فلما تأكد من عددنا أمرنا بالسـير حتى بلغنا بوابة أخرى، ولجناها لنجد سـاحة ثالثة أقل مساحة من الأخيرتين، وسرنا حوالي عشرة أمتار لندخل بوابة ثالثة أقل حجما من سـابقيها، تُدخل إلى غرفة صغيرة تنتهي بمدخل مجهز بسـكانير، فعبرناه فرادى إلى سـاحة رابعة تجمعنا فيها، وحين اكتمل عددنا أمرنا الحارس أن نقف في صفوف عرضية كل صف من

facebook.com/the.Boooks

سبعة، ففعلنا ذلك حتى بلغنا ستة صفوف أو سبعة وكنت ساعتها في أول صف، فأدخلنا صفا تلو صف إلى قاعة كبيرة تشبه مستودعات السلع ولكنها أكثر ارتفاعا، فكان إذا دخل صف منا يأمر الحراس البقية أن يثبتوا في أماكنهم ويقوم آخرون بغلق باب القاعة.

في داخلها أمرنا الحراس بنزع ثيابنا كلها باستثناء السراويل الداخلية، وما أن فعلنا حتى قام أحد الحراس بتفتيش ألبستنا، في حين قام حارس آخر ينظر في آذاننا، مناخيرنا وداخل أفواهنا، وأحيانا حين كان ينتابه شك في أحدهم يتحسس سرواله الداخلي ويأمره بنزعه، كل ذلك وحارس ثالث لا يفعل شيئا إلا النظر والكتابة في سجل يحمله.

بقينا كذلك حتى فرغ الحراس من تفتيشنا، ثم أُمرنا بالسير كأول مرة فسرنا في صف مثنى مثنى حتى بلغنا بوابة رابعة، فدخلنا عبرها إلى ساحة خامسة تتوزع عليها قاعات كبيرة تشبه القاعة التي ولجناها للتو، فأُمرنا الحراس بدخول إحداها.

كانت هذه مستودع البطانيات.

أخذ كل واحد منا بطانية واحدة، وكانت زرقاء تختلف في الطول والحجم والقذارة، وعلى خلاف الحراس الذين كانوا يرتدون بدلات رسمية خضراء مائلة للصفرة، كان المسئول على قاعة البطانيات وثلاثة معه يرتدون لباسا مدنيا ومآزر بيضاء طويلة إلى الركب بأكمام طويلة.

facebook.com/the.Boooks

حين خرجنا الصف شكلنا مرة أخرى وسرنا في طابور حتى عبرنا بوابة خامسة إلى ساحة كانت أقل الساحات حجما، ثم سرنا يمينا في طريق منحدر حتى بلغنا قاعات ثلاث مصطفة بالعرض، فسارع أحد الحراس إلى فتح إحداها وأمرنا بدخولها بعد أن أعاد عدنا من جديد كخراف تُعدُّ للذبح.

قال المسئول أننا سنقضي الليلة فيها إلى حين أن يتم توزيعنا غدا على قاعات أخرى، ثم اختار أحدنا ليكون مسئولا علينا في تلك الليلة، فسلمه ولاَّعة وحذَّره من أن يعطيها أحدنا، ثم أوصانا بالمسئول خيرا قبل أن ينصرف مع رجاله وبعد أغلق باب القاعة.

كانت القاعة بطول عشرين مترا، تقل أو تزيد قليلا، تنتهي بحائط لا يزيد ارتفاعه عن المتر، يفصل بين القاعة والمغسل الظاهر للعيان المكون من حوضين كبيرين يرتفعان عن الأرض بأعمدة حديدية مطلية بطلاء جيري أبيض، على طرفي كل حوض قمرتان هيِّئتا كمراحيض، بأبواب خشبية نصفية ترتفع بأربعين سنتيمترا عن الأرض وقد جُعل مدخل المغسل سلما إسمنتيا من درجتين عريضتين، في حين كانت أرضية القاعة من الإسمنت الخالص بعرض ستة أمتار على الأرجح، يعلوها سقف استقر دون أعمدة على علو ثمانية أمتار، أما مصدر القاعة من الهواء فكان نافذتين تقعان أعلى جدران القاعة، تميزها قضبان فولاذية تربط شاقوليا بين طرفيها احتضنتها شبكة حديدية سهلة التمزيق.

اخترت لي مكانا في القاعة وفرشت بطانيتي بعد أن طويتها بالطول على جزأين، ثم نزعت نعليَّ وجعلتهما تحت البطانية ليكونا مسندا للرأس، ثم تمددت على ظهري بعد أن قهرني الإرهاق،

facebook.com/the.Boooks

العطش، الجوع.

أظنني لحظتها استسلمت، لم يعد بمقدوري أن أقاوم أكثر، اكتفيت بالمشاهدة، فكأنَّني أشاهد فيلما لا يعنيني منه غير المشاهدة، تماما كما كنت منذ أعوام مستلقيا على بطني تحت أشجار اللوز، وأنا أحاول جاهدا ألا يراني أحد، كان الصراخ يملأ دار سيدي أحمد بن يونس ببرج اخريص.. صراخ أمي وشقيقتي حمامة وتسعديت.

كنت لحظتها أحاول استكشاف ما يحدث لهم، بعد أن دفعني خالي من النافذة وأمرني بالاختباء بين أشجار اللوز، قال لي هامسا: "اختبئ هناك.. لا تخف.. حاول ألا يراك أحد، ولا تفعل شيئا مهما حدث".

حاولت معارضته، لكنه رفعني بيديه الضخمتين ودفعني خارجا، فرغم أنه كان في الثمانين إلا أنه احتفظ بقوته كما كان في شبابه، في حين بقي الجميع في الدار، لا أعلم إن حاول غيري الهروب، كل ما أعرفه أنني كنت خارجا،

فجأة توقف الصراخ وفتح باب الدار وخرج منه خالي وأمي وبقية إخوتي، يتبعهم سبعة رجال، ثلاثة من أبناء عمّتي، وأربعة لم أكن قد رأيتهم من قبل.

تقدم أحد أبناء عمتي وكان يرتدي بذلة عسكرية ورنجاسا وعمامة بوسعادية لم يحسن لفَّها، وكان يركل خالي حتى خرّ على ركبتيه أرضا وهو يحاول جاهدا تفادي الضربات دون جدوى، وما أن لامست ركبتاه الأرض حتى انهال عليه ابنا عمتي الآخران بالركل في كل جزء من جسمه وأحدهم يصرخ فيه:

"هكْذا يالشوَّاف، يالملعون.. هكْذا رانا كفار". وكأنه يلومه على قول قاله سابقا، وخالي يحاول تفادي الضربات بيديه.

facebook.com/the.Boooks

وبينما هو كذلك، فَلَتَ مناد في لحظة غفلة من قبضة الرجال الأربعة، وكان اثنان منهم يمسكانه من ذراعيه، أما الآخران فكانا يحرسان إبراهيم وشقيقتي وكذلك أمي.

حين فلت مناد منهم، توجه صوب خالي يحاول مساعدته، دفع بأحد أبناء عمتي حتى سقط أرضا، فتوجهت الركلات إلى مناد وهو يصرخ من الألم، في حين أمسك خالي برقبة ابن عمتي الساقط أرضا وأخذ يخنقه بكل ما أوتي من قوة خارقة، حتى الركلات وطعنات ابني عمتي لم يجديا نفعا في تحريره من قبضتي سيدي احمد، وما زال كذلك حتى استطاع أحد الرجال الأربعة أن يغرس خنجره في رقبة سيدي، فسقط ميتا فوق ابن عمتي.

في تلك اللحظة تمكَّن رجلان من تثبيت مناد أرضا وسط صراخ ابراهيم ونواح أمي وشقيقتيّ حمامة وتسعديت، ثم همَّ ابنا عمتي لرفع جثة خالي لسحب شقيقهما، فلم يستطيعا حتى ساعدهما آخر، فسحبوه وهم يمزحون معه ويطلقون النكات، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا لحظة سحبه أنه مات خنقا، فثارت ثائرة أحد شقيقيه، فسل الخنجر المغروس في رقبة خالي واتجه مباشرة إلى تسعديت وطعنها، ثم اتجه نحو ابراهيم فركله حتى سقط أرضا وظل يركله على الوجه، البطن وعلى أي جزء تكشّف من أخي الذي كان يجاهد للتملص من الأيدي التي ثبتته أرضا.

وكان ابراهيم أثناء ذلك لا يفعل إلا البكاء والصراخ، وظلوا على ما هم فيه حتى أغمي عليه فتركوه وهم يظنونه ميتا.

وحين فرغوا منه، أمر الذي قتل تسعديت أحد رجاله بحبس أمي في الدار والعودة، فنفذ أمره دون تعليق.

وحين عاد الرجل، انحنى ابن عمتي على مناد وهمس له:

facebook.com/the.Boooks

- اليوم ستبيت مع أبي لهب وخالك الشوَّاف، ولكن قبل هذا سأدعك تروِّح عن نفسك بعض الشيء.

غمز أخاه فتحرك وكأنه يفعل شيئا معتادا عليه.

توجه مباشرة إلى حمامة وطرحها أرضا، مفرِّقا بين ساقيها، في حين أمسك أحد الرجال بيديها كي لا تتحرك، وأخي مناد يصرخ ويبكي، وكلما فقد القدرة على الصراخ كان يلطم رأسه على أرض الحوش الإسمنتية، حتى شُجَّ جبينه، ثم سرعان ما كان يعود إلى الصراخ وهو يسمع صراخ حمامة والرجال يتداولون عليها بلا توقف حتى أغمي عليه وأغمي عليها، هو من فجيعة ما رأى وهي من فجيعة ما عاشته ساعة ونصف.

حين اكتفوا منها، قيَّدوا مناد وحملوه مع ميِّتهم وانصرفوا.

كل هذا وأنا بين أشجار اللوز، وقد تملَّكتني الرعشة والبكاء.

أنا أنا أيضا شُجَّ رأسي..

اغتصبت مثلما اغتصبت حمامة.. احتجزت كما احتجزت أمي..

كثيرا ما سألتُني: لماذا اختارني خالي دون إخوتي لأفرّ؟..

لماذا جعلني أقسم أن لا أفعل شيئا مهما حصل؟.. لماذا تركتهم يفعلون بعائلتي ما فعلوا؟

الآن تدركون لماذا يضطهدني الأرق مثلما يفعل، لماذا يحاصرني كل ليلة يمنع عنّي النوم، يفترسني الخوف، كل ليلة، من أن أغمض عينيَّ وأراهم، أخشى سماع صوتهم وصراخهم، أخشى أن يعاودني ذات المشهد وأنا بين أشجار اللوز وهم في الحوش يقتلون..

الآن تدركون لماذا أصبح أكبر أحلامي ليلة نوم كاملة، ثماني

facebook.com/the.Boooks

ساعات من الرقاد العميق والمستمر، دون أحلام،.دون كوابيس..

ما الـذي يمنع هذا الحلـم أن يتحقق، أهو جُبني الذي صادقني منذ ليلة مقتل تسعديت، منذ ليلة اغتصاب حمامة؟، واستمر يلازمي، يظهر في الليل ويختفي في المسـاء، يظهر ويختفي كإسـماعيل، يظهر ويختفي كنبوءة المرأة العجوز..

الآن عرفـت الظالـم، ذاك الـذي أخرجنـا من دارنا من غير حق، ليدفع بنا إلى الموت، إلى العار الذي لا َيمَّحي..

الآن عرفت الأعمى، ابراهيم هذا الذي أفقده الركل قدرته على السـير، قدرتـه علـى الـزواج، قدرته علـى الإبصار، هـذا الذي جعلته شـجاعته صنما جامدا، لا يفعل شـيئا غير الأكل والشـرب والتغوّط. لطالمـا حلمـت بقتلـه رحمـة به، رحمة بأمي التي لم تعد تفعل شـيئا آخر غير خدمته..

الآن وقـد وجـدوا منـاد جثـة هامدة، زرقاء، لأنـه أراد أن يعيش رجـلا ويمـوت كذلـك، لكنهـم قتلـوه كالكلب، جعلوه يشـاهد أختنا تغتصـب سـاعة ونصـف، واحدا بعـد واحد، جعلوه يشـاهد كل الدم النـازف منهـا، كل منـيٍّ يخـرج منهـم. جعلـوه يسـتمع إلـى صراخها ممزوجا بقهقهاتهم، انكسـارها ممزوجا بانتصارهم، ثم حملوه بعيدا، إلى مكان ما في ذراع بوهرار، جرَّدوه من ملابسه وجعلوه يصحو، ثم قامـوا باغتصابـه واحدا تلو الآخر، تماما مثلما فعلوا بحمامة، وعندما انتهـوا وضعـوا جثـة قتيلهم فوق ظهره وربطوهما معا، ودفعوهما إلى الوادي..

جثة أخيه فوق جسد أخي..

***

facebook.com/the.Boooks

غفوت دقيقة أو دقيقتين فللتعب أحكامه أيضا..

على يميني شاب يحادث شابا آخر، أما على يساري فكان الفراغ يمتد حتى باب الصالة، في حين كان البقية بين متجمِّعين جماعات و بين من انعزلوا بأنفسهم مثلي، أربعة فقط كانوا يسيرون ذهابا ومجيئا بين باب الصالة والمغسل، وكنت خمّنت ساعتها أنهم يفعلون ذلك طلبا للدفء و درءا للبرد الذي بدأ يبسط إرادته في القاعة، في هذه الأثناء سألني أحدهم عن تهمتي، ثم ما لبث أن سألني الجميع، تماما مثلما حدث معي في الكافينياك، وكنت بدوري أسألهم عن تهمهم فيجيبون، وكانوا جميعا يؤكدون لي براءتهم وكأنهم يتدربون على ما سيقولونه يوم المحاكمة، المهم أنهم رغم قلّتهم جمعوا بجرائمهم أكثر مما جمع قانون العقوبات من جرائم: قتل، سرقة، اغتصاب، ضرب، تسوُّل، زنا، فعل مخل بالحياء، مخدرات، أسلحة، تزوير، اختلاس،. بوجودهم مجتمعين شكَّلوا أكثر الأحلام إثارة لأي عالم مختص في الإجرام، لا سيما وأنهم كانوا من شتَّى الأعمار، وبين هؤلاء كان يفترض أن أقضي ليلتي.

كل من كان في القاعة سألني وسألته، إلا شيخ كان مختليا بنفسه بجانب المغسل، وعلى ما ظهر على بعض الشبان المعتادين على المكان بدا أنهم كانوا يعرفونه، يناديه بعضهم بـ"الحاج" وبعضهم بـ"عمي احمد" أما الأكبر سنا فكانوا ينادونه بـ"الصوري"، ورغم معرفتهم به إلا أنهم لا يجالسونه، يكتفون بالسلام عليه ومصافحته، أو بالسؤال" ما الذي أتى بك؟" فيرد مبتسما "فصل الشتاء" ثم ينصرفون، كان لا يفعل إلا طقطقة أصابعه والنظر نحو الأرض.

سألت الشاب الذي بجانبي:

- من يكون

facebook.com/the.Boooks

- شكون عمي احمد؟

- نعم، ذلك الجالس هناك

- مجرد مهبول، متشرد، مع حلول فصل البرد يقترف جرما ما، ثم يسلِّم نفسه.

- يسلِّم نفسه؟!

- نعم، لا يحبُّ أن يمضي فصل الشتاء في الشارع، على الأقل يجد هنا ما يحتاج إليه من أكل وغطاء ونوم.

- وأهله؟

- لا أهل له، هكذا يقولون، أنصحك بالإبتعاد عنه، فأنت تبدو وليد فاميليا

- ولم؟ لا يبدو رجلا خطيرا

- ربما، ولكنه خطير بالفعل

- ثم دفع فراشه نحوي وكأنه يخشي أن يسمعنا أحد

- لقد أمضى هنا من قبل عشرين سنة

- عشرون سنة؟

- نعم. قتل ابنته، يقولون إنه اندس ليلا إلى فراشها وخنقها بوسادتها

- ولم فعل ذلك؟

- يقولون إنها لطَّخت شرفه، هكذا يقولون، والغريب في الأمر أنه لم يكتشف أمره، ذهب بعد سنة من موتها وسلَّم نفسه للدرك واعترف بكل شيء، بل ورفض أن يوكل محاميا، وحين طلب منه القاضي كلمة أخيرة، طلب أن يعاقب بالمؤبد.

- ولكنك قلت إنه سجن عشرين سنة

facebook.com/the.Boooks

- نعم، فقد رأف به القاضي وظنه مجنونا

ثم غلبه الضحك واسترسل:

- لو كان الجميع مثله لفقد "الغرَّاق" عمله

- الغرَّاق؟

- نعم الوكيل، قلت لك بأنك وليد فاميليا.

facebook.com/the.Boooks

- 6 -

الحق، الحق..

لـم أكـن مشـدوها بسـجن الحـراش، لـم ترهبني جدرانـه، ولـم تبتلعنـي شسـاعته، فقـد سـبق وأن عرفته من قبـل، حين كانت حمامة تسـرد علـيّ يومياتهـا هنـاك، وأكاد أقسـم أنها روت لي عن السـنتين اللتين أمضتهما هناك يوما بيوم، سـاعة بسـاعة، حتى حسـبتُني أنا من قضى تلك الفترة في السجن، حتى ربع الساعة التي كنا نزورها فيها أنا وأمي كل جمعة، كانت تقضيها في الثرثرة عن يومياتها.

حدَّثتني عن كل شـيء: الأبواب، السـاحات الشاسـعة، الحراس ذوي البـذلات الخضـراء المائلـة إلـى الصفـرة، عـن الرجـال ذوي المـآزر الطويلـة البيضـاء، عن السـحاقيات، الأكل الرديء، المغاسـل والمراحيـض القـذرة، عـن إدمانها التدخين، عن الحـارس الذي أراد أن تصبح عشـيقته، عن رمضان كيف تقضيه، عن دورات كرة القدم، عن السجينة التي مارست الحب معها وكيف أحبّت ذلك، عن عملها في مخبزة السـجن، حدّثتني عن كل شـيء إلا عن حالها، فقد كانت تتفادى السـؤال بكل ذكاء، بكل تطرّف، وكنا ندعها تفعل ذلك رأفة بهـا، و كنّـا رحمـة بهـا نحقّـق كل طلباتهـا، حتى أكثرهـا غرابة، وكنا إرضاء لها نحضر إبراهيم لزيارتها رغم إعاقته مرة كل شهر، رغم ما كان يعنيه لنا ذلك من جهد،

بعد حادثة برج اخريص أمضينا قرابة خمسـة أشـهر في ترحال دائـم دون أن يسـتقر بنـا المقام في مـكان بعينه. لجأنا في البداية إلى

facebook.com/the.Boooks

بيت أحد أقربائنا في الهاشمية بالبويرة، إلا أن أوضاعه المادية لم تكن تسمح له بإبقائنا في ضيافته لمدة أطول، ثم استضافنا آخر أياما في بيته ببني يلمان بالمسيلة، قبل أن يجد لنا مسكنا في بن سرور.

كنت وقتها قد التحقت بالجامعة، أقضي معظم أيام الأسبوع في العاصمة، بين الدراسة نهارا والعمل ليلا في ملهى قرطبة، كل ذلك دون أن أنسى زيارة ابراهيم في مستشفى زميرلي بالحراش والاهتمام بحاجياته، فبعد أن تأكدنا من إصابته بالعمى، أخبرنا الأطباء أن الضرب المبرح الذي تعرض له، تسبب في شلله، وكان لا بد له أن يمضي بعض الوقت في المستشفى قبل أن يتمكن من الخروج.

أما نهاية الأسبوع فقد كنت أقضيها مع أمي وحمامة في بن سرور.

ما كاد الشهر الخامس من حادثة برج اخريص أن ينقضي، حتى طلبت مني أمي أن أجد لنا منزلا في العاصمة، بعد أن استحال مكوثها وأختي عند العائلة، إذ بدأ بطن أختي في البروز فاضحا حملها، فأرشدني أحدهم إلى مكان في وادي شايح يدعى الكاريار، فاشتريت هنالك قطعة أرض بدون وثائق بالذي جمعته من عملي والثمن الذي حصلت عليه من بيع ذهب أمي ومن القليل الذي أَعْطَتْنِيه أم السعد ووردية، وعلى الأرجح أنه مبلغ اقتطعنه من مصروف البيت خلسة من زوجيهما.

حين انتقلنا إلى الكاريار، اختلقنا قصة تقول إن أختي أرملة وزوجها قتله إرهابيون، إذ كنا نخّاف أن تطالنا الألسن والأيدي، ولكن لم يطل الأمر حتى كشفت سرنا زياراتُ الدرك المتواصلة

facebook.com/the.Boooks

لمتابعـة قضيتنـا، وكذلـك جهـود الراغبين في معرفـة حقيقتنا: تحالفا ضدنا وكشفا المستور.

أصبحـت أختـي كلما خرجت لقضاء حاجـة، يتربصها المرضى والمكبوتون وتحاصرها العبارات النابية، حتى ازدادت نوبات جنونها، التـي لازمتهـا منـذ حادثـة برج اخريـص، وأصبحت أكثـر فأكثر تعلقا بالأقـراص المهدئـة، فقررنـا الرحيـل مجـددا، وهذه المـرة في اتجاه القليعـة إلـى مـكان يسـمى دوار بـن يمينـة، مكان للفوضـى والبيوت القصديريـة المشـبوهة، معظمهـا لمعاقـرة الخمـرة والكيـف والبقيـة للمواعدة والجنس، لكنها كانت رغم ذلك جنّة لنا.

حين حان موعد وَضْع حمامة، أدخلتُها إلى عيادة خاصة ببلفور، فقد خشيت أن يُكتشف أمرنا لو وَضَعَت في مستشفى القليعة.

مكَثـت هنـاك ثلاثـة أيام، وفي صبيحة اليوم الرابع وضعت فتاة، سميتُها بنفسي سناء، تبركا بشقيقتي المفقودة، إسم أغضب أمي كثيرا إلى درجة أن شـتمتني ونعتتني بولد الحرام، رغم أنني كنت أحسـبها ستفرح وأن اختياري لهذا الاسم سيبهجها.

بعـد مـرور يومين على ازدياد سـناء، توجهتُ مع إسـماعيل في سـيارة والـده لأُعيـد أختي إلى البيت، لـم أجدها هناك، وجدت فقط خبرا في مكتب الإستقبال يقول إنه قبض عليها بعد أن وجدوا سناء مذبوحة بموسى حلاقة..

ورغم كل ما أخبَرتْني به حمامة، إلا أنَّها تناست أن تذكر لي كم هي كئيبة أيام السجن، كيف تتملكك الكآبة شيئا فشيئا، يوما فيوما، ربما لأنّها كانت قادرة حتى مع قصرها لتجعلك تسـتذكر كل تاريخك الشـخصي، شريط تديره في رأسك، مشاهد كاملة أو لقطات فلاش باك.

facebook.com/the.Boooks

تقـف عنـد كل صغيـرة وكبيرة في حياتك مهمـا طالت، وكأنك تعيد تصويرها من جديد، هكذا ربّما يضع الربُّ المصائر، يكتب أولا السـيناريو على اللوح المحفوظ، ثم يجري عملية "كاسـتينغ" لاختيار الممثليـن، أمـا بطـل الفيلم فلن يحتـاج إلى عملية بحث مضنية، فقط يأخذ قطعة من الصلصال، ليشكّلها مثلما يريد، ينفخ فيها أو يقول لها: "كن"، فيكون البطل، فإذا أعجبه الأمر عدَّل في سيناريوهات أخرى، ليوفِّر أسباب التقاء والديّ البطل بما يسمح بولادته، وعند ولادته يضع أمامـه مجموعـة لا متناهيـة من الخيارات، تقابلها مجموعة لا متناهية من السيناريوهات البديلة، جميعا يحمل نهاية يعرفها، وبحسب النهاية تكون نهايته الأخرى: جنة أو جحيم، وهكذا يجمع بين ما يتوق إليه الإنسان من حرية اختيار، وبين ما هو صفة أزلية فيه "فعّال لما يريد"، هذا كل ما في الأمر..

أما في أيَّام السجن فإنك لا تستذكر إلا سيناريو واحدا من تلك السـيناريوهات، ربمـا قـد تتوقف عند الخيـارات التي لم تقم بها، إلا أنّك لن تملك القدرة على حصرها جميعا، وإن ملكت فلن تستطيع أن تجد ما يقابلها من سيناريوهات، ولعل هذا أكثر ما يفرِّق الإنسان عن الله.

لم تخبرني حمامة كيف لعلبة سـجائر، مهما كانت رداءتها، أن تجعـل منـك ملـكا يعرفـه الجميع، يتـودد إليه الجميـع، تصبح محط اهتمـام حتـى عند أخطر المسـاجين، فحتى أكثر المسـاجين عدوانية، بمجـرد أن تمنحهـم نفَسًـا عميقـا يتنازلـون عن تاريخهـم القديم قدم جرائمهـم، يصبحـون أقـرب إليـك منـكَ، تختفـى كلماتهـم البذيئـة، نظراتهـم القاسـية، تليـن أياديهـم الملطَّخـة بـكل شـيء، فتصبح رغم سـوادها أكثـر بياضـا مـن يد قديس لم يحتلـم، ومع نفَسٍ آخر تمَّحي

facebook.com/the.Boooks

من مخيِّلتك ما تصورته يوما عن السجن، يصبح مجرد منتجع شتوي تقضي فيه بعض الأيام.

لم تخبرني حمامة، كيف تصبح أكثر الأشياء تفاهة أيّام حريّتك أكثر الأشـياء أهمية أيّام سـجنك، فنجان قهوة سـاخنة، حبة حلوى، رائحـة الطبيـخ، لحظـة انفراد فـي المرحاض، ماء فـي الحنفية، قطعة صابون معطّر..

لم تخبرني كيف تتحامل عليك الذكريات كما لم تفعل من قبل، مثلما فعلت معي، كانت تنهشني، تسحبني إليها، تجعلني أحترق معها، احتراقا مستمرا لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد، وكلّما تحاصرني أحاول جاهدا أن أعثر بينها عن أي ذكرى تمنعها عني، هكذا هي الذكريات لا تمنعهـا، لا تلغيهـا إلا الذكريـات. قبـلات جدتي، جلوسـي على حجر أمي، سطوة أبي، كلها ذكريات لم تصمد، وحده وجهُها أوقف الزحـف، وجـه زوجتـي، وجه أمال، بعينيها الراقدتين على سـرير من النور، بأنفها الشامخ، بثغرها الوردي، بريقها العسلي، وحدها أوقفت الزحف، وكأن اللواتي كن قبلها لم يكنَّ، وحدها فكّت حصاري.

تفاجـأت حيـن قَفـزتْ فـي دائـرة النار، لم تخـف، فقط قفزت، لتكـون هنـا حيـن رحـل الجميـع، حينمـا تركونـي وحيـدا تحاصرني الذكريات، أبي، جدتي، سـناء الأولى، سـناء الثانية، مناد، تسـعديت، كلهم رحلوا، حتى أمي مع ابراهيم، مع حمامة، كلهم رحلوا إلا أمال بقيت معي، لم ترحل، لم تختف كإسماعيل.. بقيت معي، رغم أنانيّتي معها، رغم خياناتي لها، رغم كل محاولاتي لإبعادها، بقيت معي..

ما زلت أذكر حين كنّا نحتسي الوقت معا، نقتل الأحزان بالقبل الخفيفـة، نتعمـد التأخـر عـن ذوينـا لنكون معا، فقط أنـا وهي، ننتظر اللحظة، نقيل اللحظة من قاموس الوقت.

facebook.com/the.Boooks

لـم تخبرنـي حمامة بكل هـذا، أنا أيضا لم أخبرها كيف قضيت أيامـي هنـا، فأغلـب الظن أنها أمور لا تحكى، تعاش فقط، فلا يمكن بأي حال وصف ما لا يوصف.

facebook.com/the.Boooks

- 7 -

رأسـي يؤلمنـي، صـداع رهيـب تملك نصف جمجمتـي، بالكاد استطعت فتحى عينيَّ وكأنّ جفنيّ يحملان ثقلا جديدا.

- هل أنت بخير

سألني الشاب الجالس بجانبي، فابتسمت له وأوأت له بما يفيد أنني بخير، في حين استمر في حديثه وأنا غير آبه له.

كنـت متعبـا إلـى درجة الإغمـاء، والصداع يزحـف بروية داخل رأسي، يمنعني من النوم ومن اليقظة، ورغم أن جفناي كانا قد حجبا النور عن عيني، إلا أنني لم أستطع ولوج العتمة لأستريح.

وفي لحظة مباغتة غفوت، وما كدت أغفو حتى اسـتيقظت من جديـد علـى صـوت.. صوتيـن بالأحرى، لكنني لن أجـزم في الأمر، صـوت رجـل وصـوت امرأة، هكذا أظن، حديث مسـتمر، وشوشـة، حديث كالهمس.

صـوت الرجـل كصوت إسـماعيل، وكان صوت المرأة كصوت أمال..

تتضَّح الرؤيا بعض الشـيء: خيال جالس خلف مكتب خشـبي فخم، تملؤه الأشياء الصغيرة: أوراق صغيرة بحجم الوصفات الطبيّة، أقـلام مـن كل نـوع، مسَّـاكة ومشـدَّات أوراق بـكل حجـم، تتموضع جميعها على وجه المكتب بشكل مرتَّب أو مفرط في الترتيب.

facebook.com/the.Boooks

تتوضح الرؤيا أكثر، خيال آخر تنبعث منه رائحة عطِرة كتلك التي تحبُّها أمال أو ربما كتلك التي اعتادت عفاف أن تضعها قبل أن نتطارح الغـرام، ربمـا يكـون العطر نفسـه، لم أعد متأكـدا، اختلطت الأمور في رأسي، إلى درجة أن التفاصيل التي عادة ما أحسن رصدها اختفت من ذكرياتي عن هذه اللحظة، ولكن بعد تمعن، سأجازف وأقول إن عطر الخيال كان كعطر المرأة السمراء تلك التي حدثتكم عنها سابقا.

المهم أن الخيال لامرأة لا ريب، كانت جالسة على أريكة تبدو مريحة، تضع ساقا على ساق، ترتدي تنورة قصيرة،

أحب أن أذكر شـيئا عن شـعرها، معالمها، لكنني لا أذكر، أذكر فقط حديثا مقتضبا دار بينهما:

- لا أظن أن طريقتك ستنفع، ربما ستصدمه أكثر.

- لا يمكنك أن تجزمي في الأمر، ستكون محاولة وفقط.

- وإذا لم تنجح؟

- سيكفيني فخرا أنني حاولت، لا توجد طريقة أخرى، ولا أظن أن هناك طريقة أفضل.

- لا أوافقـك، لمـاذا لا تمنحنـي فرصـة أخـرى، شـهرين فقـط وبعدها إفعل ما شئت.

- سايرتكِ سنة كاملة والنتيجة أنَّنا عدنا إلى نقطة الصفر.

- أعرف ولكن..

قاطعها:

- ولكن ماذا؟.. عليك أن تدركي أننا نتعامل مع مشاعر إنسانية، بـل أكثـر مـن ذلـك، نتعامل مـع مزيج خطير مـن التجـارب الحياتية المتناقضة، جميعها متجمِّعٌ في عقل واحد، وهنا تكمن الخطورة.

facebook.com/the.Boooks

- ماذا تقصد؟

- أكثر ما يحقق توازن الإنسان هو إيمانه اللاإرادي بوجود منطقة وسط بين الحق والباطل، بين الأسود والأبيض، بين الحقيقة والخيال، منطقة بين النقيضين، هناك يجد السكينة وهناك فقط يستطيع إعادة توازنه عندما يختل.

- وبعد؟

- تخيلي الآن، أنه لسبب من الأسباب تتقلص هذه المنطقة، تتحرك حدودها لتضيق شيئا فشيئا حتى تنطبق، لتصبح في الأخير مجرد خط رفيع يفصل عالمين نقيضين، أتعرفين ما قد يحدث؟

- يفقد الإنسان توازنه.

- بالضبط، هذا ما يحدث غالبا، ولأن العقل يملك مناعة أيضا سيحاول يائسا إيجاد طريقة ليعيد بها توازنه.

- يخلق منطقة وسط، منطقة "بين بين" جديدة.

- نعم، ولكن كيف؟

- يحاول تركيب الصورة السابقة التي عرفها من قبل.

- الصورة السابقة، تقصدين ملايين بل ملايير الصور التي عرفها من قبل.

إن تركيب صورة واحدة يستلزم ساعات من جهد عقل سليم، وأياما بالنسبة إلى عقل متضرر، فما بالك بملايين الصور التي تفتَّتت، سيستلزم ذلك قرونا من الجهد.

- إذا فالأمر مستحيل، تماما مثلما تصورتُ أنا، الآن بدأت في نقد طريقتك.

- لا تستعجلي الحكم، فقط سايريني

facebook.com/the.Boooks

- طيّب، ماذا سيفعل هذا العقل المتضرر

- سيحاول بناء منطقة الوسط، ولكن عندما يدرك استحالة الأمر سيستعين بالسرعة بكل ما يعنيه ذلك من أخطاء في التركيب، ثم ما يلبث أن يزاوج بين المتناقضين وإقصاء كل ما من شأنه أن يذكِّره بالصورة الأصلية لمنطقة الوسط.

- يعني أنه يبني منطقة وسط افتراضية

- بالضبط، منطقة يصبح المستحيل فيها ممكنا، الأسود أبيض، الحق باطلا والخيال حقيقة، أتعرفين ما يعني ذلك

- الجنون

- وهذا ما سيحدث في حالتنا إذا لم نتدارك الأمر.

- لكن أسلوبك سيصدمه، ولن يوصله إلا إلى الجنون، على الأقل أسلوبي سمح بإبقاء الخط بين المتناقضين.

- يبقيه ما دام جسده يقبل كل تلك العقاقير، تعلمين أنها لا تشكل إلا كذبة مؤقتة على عقله، سيأتي على عقله وقت يكتشف فيه حقيقة كل تلك العقاقير، ويكتشف أنها عنصر دخيل، تعرفين بالضبط ماذا سيحدث حينها، فعوض أن نحصل على مجنون هادئ، وهذا أخطر ما قد يترتب عن الصدمة التي قد تنتجها طريقتي، فإننا سنحصل على مجنون عدواني وخطير.

- لن أناقشك

- لن تفعلي، لأنك تعرفين أنني على صواب

- ولكن طريقتي ستمنحه على الأقل بعض الوقت

- ربما ولكنها ستقضي على بقية حياته.

***

facebook.com/the.Boooks

ثم صحوت من غفوتي، أو ربما أكون قد غفوت في صحوتي، لست أدري، لست أذكر ما يحقن اليقين في حديثي هذا، لا أذكر إلا أنني كنت هناك، أين تركتُني آخر مرة، متوسدا نعليَّ وممددا على بطانية زرقاء، كنت أراقب عمي أحمد الصوري وهو يطقطق أصابعه وينظر إلى الأرض، في حين كان شاب بجانبي يحدثني. كنت أرى شفتيه تتحركان، وحين كانتا تنفرجان كنت أرى لسانه يتمدد ويتقلص، أغلب الظن أنه كان يحدثني، إلا أن كلماته كانت ما أن تبلغ عتبتي أذنيَّ حتى يمنعها الصمم من الولوج، لم أعد راغبا في الاستماع، كل ما كان يهمني لحظتها أن أرتاح، أن أوقف زحف الصداع الذي تمكَّن من نصف جمجمتي، إلا أنه لم تكن في يديَّ أي حيلة لأوقف زحفه، سوى أن أتمدد وأشغل تفكيري بأي شيء، وكانت مشاهدة عمي أحمد الصوري أكثر ما يشد الانتباه.

أعترف أن في هذا الشيخ، شيئا يشدني إليه.

قلت لنفسي.

لو كنت لحظتها أدرك ما سيكون لهذا القاتل من دور في حياتي لامتنعت عن الاهتمام به، لكنه القضاء- كما كانت تقول جدتي- تحالفت كل أسبابه لتجرّني إلى سجن الحراش، إلى المكان الذي قدِّر لي أن ألتقي فيه بهذا الرجل، بهذا الذي سيجعلني أتوقف عن ملاحقة نبوءة المرأة العجوز، أو لأحقق آخر ألغازها.

هو أيضا شعر بشيء نحوي، شعور منعه من طقطقة أصابعه، جعله يتساءل عن سبب رغبته في التعرف عليّ، شعور لم أفهمه لحظتها ولم يفهمه هو أيضا، ولكن في لاحق الأيام تكشَّف هذا الشعور، دون أن يكشف عن اسمه.

كانت العاشرة ليلا حين عاد الحراس ومعهم سجينان يحملان

facebook.com/the.Boooks

صفيحة معدنية كبيرة تحمل من الطرفين وثالث يحمل ما يزيد عن أربعين خبزة، ثم قاموا بوضع الصفيحة على باب المغسل، أما الخبز فجعلوه فوق مجموعة من البطانيات القذرة، كل ذلك بأمر من السجين المسؤول علينا، ثم حملوا الصفيحة وجعلوها بجانب قُمرتي المرحاض، وقام المسؤول علينا باختيار مساعدين أحدها قام يوزع الخبز على المحبوسين، في حين كان الآخر يشرف على توزيع الطعام الموجود داخل الصفيحة، فيما قام المحبوسون بتشكيل طابور طويل امتد من المغسل حتى آخر القاعة، أما أنا فاكتفيت بأكل الخبز دون أن أحاول الحصول على نصيبي من الأرز الذي كان يملأ الصفيحة، والحقيقة أنه كان عجينة لا رائحة ولا طعم لها.

كنت أراقب المحبوسين وهم يتدافعون في طابورهم، يغرفون من الصفيحة بأياديهم المجردة، ثم يملؤون خبزهم بالأرز المعجن وهم يبتسمون، ثم مالبثوا أن تفرقوا جماعات وفرادى، لقد كانوا سعداء بما منحتهم يد العدالة من إذلال، حمدوا الله على طعام لا تأكله حتى الكلاب، على خبز مطاطي تعافه حتى الخنازير البرية، كانوا سعداء بطعام اقترض رائحته من المراحيض القريبة وطعمه من الأياي القذرة التي غَرفت منه، ولكنّ للجوع سطوة لا يعرفها إلا الجائع.

أحيانا أحب أن أتصور أن ما عشته لم يكن إلا وهما، فبمجرد أن أتذكر كل تلك المآسي والأيام العشرين التي قضيتها في سجن الحراش ينتابني شعور غريب، مزيج بين الرغبة في الاندثار والرغبة في التوقف، ولكنني حين تعاودني ذكرى يما عيشة، أمي، زوجتي يمَّحي هذا الشعور من سبورة مشاعري وكأنه كتلة مهملة في كون يستهزئ بالكتل.

facebook.com/the.Boooks

أُحب أن أظل هناك دون أن أكون هنا، وكأن القطيعة بين ما كنته وما أنا عليه ممكنة، أو كأن ما أنا فيه اليوم كان ليتغير لو تغير شيء ما في سابق أيامي، ولكن ما عساه أن يكون؟، سؤال لطالما جعلني أوصل الليل بالنهار، الغفوة بالصحوة، وما كان له أن يفعل ذلك لو تعرفت على عمي أحمد الصوري قبل الآن، لو أنني فقط اكتشفت وجوده سابقا قبل عامين فقط!!، ما أسخف هذه الحياة، ما أتفه هذا القدر.

أتذكر سعادة أمي حين حكت لي أول مرة حكاية المرأة العجوز، أتذكر دموعها حين طردنا أخي، أتذكر نحيبها عندما علِمت بمقتل مناد، أتذكر الظلمة التي غرقت فيها عيناها بعد عمى ابراهيم، فأسألُني أي غاية لهكذا حياة؟.. أحقا خياراتنا هي التي تصنع الفرق بين ما كنّاه وما نحن عليه؟، هل حقا نحن من اختار مصائرنا؟، أم الخيار مجرد وهم لذيذ، خيال كالخيالات التي تملأ رأسي كلما غادرتُني إلى جسد كجسدي:، ممدد لا حراك فيه، أنظر إلى سماء ملبَّدة عبر نافذة صغيرة، أراني في مئزر أبيض بأكمام طويلة تلتف عليَّ لتمنعني من الحراك، فلا يسعني إلا أن أنظر عبر النافذة، إلى السماء الملبَّدة، كأنني أنتظر أن يحدث شيء، ثم سرعان ما أشعر بالغبطة حين تنفصل عن الغيوم السوداء غيمة صغيرة، تبتعد عنها، وكلما ابتعدت تغيّر لونها، حتى إذا بلغت مصدر النور تسرق من السماء بعضا من زرقتها، تصبح في ذروة ثورتها سحابة زرقاء في سماء ملبَّدة، سحابة زرقاء في سماء أكتوبر.

facebook.com/the.Boooks

القسم الثاني

الغريب يخطف تفاحة من جديد

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

- 1 -

بعيدا عن الخيالات التي أصبحت تحاصرني، أحاول جاهدا أن أستمر في قص حكايتي، فهي بالنسبة إليَّ أهم شيء رغم كل شيء، فذكرياتي أكثر ما يبقيني مستمرا، صامدا أمام ما أعيشه اليوم، حين اكتشفتني محاصرا بين عالمين: عالم أبيض يعبق برائحة الكحول، لا لون فيه غير الأبيض، الجدران، المآزر، الملاءات، حتى الوجوه بيضاء، عالم للخيالات ومن الخيالات الزئبقية، تتغير وجوهها كلما حاولتُ التمعن فيها، هناك تمتزج الأسماء والذكريات، الواقع فيه حالة استرخاء مستمرة، فلا أمس ولا الآن، حتى الغد فيه فراغ مستمر في فراغه،

هناك أكون دائما ممددا على ظهري، مقيدا بأكمام مئزر أبيض في غرفة لا يجرأ النور أن يخرج منها.

وعالم آخر جامد، بارد بلا لون، يحاصرني فيه الصراخ حتى لا أكاد أسمعني، يتمدّد إلى لا نهاية في ظلام بالكاد أبصر فيه، وكأنه قطعة من الليل تزداد اتساعا كلما ازداد الصراخ قوة، أراني فيه سائرا إلى الخلف حافي القدمين، على درب جليدي كلما أذابته حرارة دمعي جمَّده الصراخ العاصف، الصادر من "لا أين"، جميع الذين هناك وجوه من ذاكرتي القديمة، وكأن اليوم فيه لم يكن، وكأن الغد نكتة بذيئة يستحي الأمس من ذكرها،.

وبين هذين جسر دقيق من الشوك، أحاول ساعات يقظتي أن أسير عليه، بأن أستمر في الحكي، لحظة خرجت من السجن بعد

facebook.com/the.Boooks

عشرين يوما من الاحتجاز،

لحظتها شعرت ببعض الارتياح:

- أخيرا خرجت من السجن.

قلت لنفسي، وكأنني لم أصدق الأمر بعد.

حين عبرت إلى الخارج، رمقني الحارس بنظرة أشعرني بها أنه سعيد من أجلي، قال لي مازحا: "لا تعد لزيارتنا، فأنت غير مرحب بك".

ابتسمت له وفعل مثلي وهو يغلق البوابة الضخمة حتى اختفى خلفها، وصريرها لا يزال في أذني وأنا أسألني ببراءة: "أهكذا يكون صوت الحرية؟!"، ثم انطلقت في رحلة جديدة بحثا عن حقيقة أخرى غير التي راودني وهمها ثلاثين عاما،

في قرار نفسي كنت مدركا أن خروجي من السجن لم يكن أكثر من خروجي منه، فبعد الذي اكتشفته هناك، أدركت أن رحلتي لم تبدأ إلا في التوّ، فكأنّ ما عشته سابقا لم يكن إلا تحضيرا للحظة قادمة، لحظة تتعرى الحقيقة فيها كعاهرة أكثر ما يستهويها فيك ما تبذله لها من مال لإرضائها، وأكثر ما يستهويك فيها ما تظهره لك من حسن يروّض شهوتك، وفي قصتي هذه كانت عاهري أكثر الخلق دمامة.

في العاشرة ليلا خرجت من سجن الحراش، فلم يكن- وقد تأخر الوقت- إلا المبيت في أي نزل، وعزمي أنه إذا كان الصباح عدت إلى منزلي بدوار بن يمينة، وكنت قد علمت أن زوجتي نزلت عند أمي بعد الذي حلَّ بي، إلا أنني كنت بالكاد- مع ما كان في جيبي ساعتها من مال- قادرا على اكتراء نصف غرفة، ولكن الحظ حالفني ووجدت نزلا في وسط الحراش، قبل صاحبه أن يمنحني

facebook.com/the.Boooks

سريرا في غرفة كالقبر، أكثر نزلائها الجرذان. ومن شدة تعبي رقدت كما يفعل الأموات.

في الصباح توجهت مباشرة إلى القليعة، وفي رأسي سؤال واحد لا غير" هل أصارح أمي؟"، ثم سرعان ما وجدت الجواب على عتبة ما عاشته هذه العجوز من محن لا تكاد تنتهي، فقررت أن أجعلها تستمر في أملها، في إيمانها بنبوءة المرأة العجوز، أفليس الإيمان ما يجعلنا نستمر؟..

كنت مدركا أن المقادير التي شاءت أن تحقق حلقات النبوءة، تحاول أن تجعلني أفهم أن لكل حدث غاية ما، وكانت الغاية من دخولي السجن هي أن أتعرف على عمي احمد الصوري، هذا القاتل المنبوذ حتى من أكثر المساجين إجراما.

كنت ألحظه في كل قاعة أدخلها، وكأن المشيئة أرادته أن يتواجد في أماكن تواجدي، إلا أنني ما كنت لأجرأ على الاقتراب منه، رغم ما كنت أشعر به نحوه، فثمة شيء شدني إليه، إذ لم أكن قادرا على تخيله مثلما صوروه لي، سفاحا، قاتلا لا رأفة فيه، بدا لي مجرد شيخ هادئ، لا يحسن إلا الجلوس وقراءة القرآن وطقطقة أصابعه،

لكن المقادير التي جمعتنا هنا، ما كانت لتترك الأمر يستمر على ما هو عليه، فقد قررتْ أن تجمعنا مرة أخيرة أياما قبل إطلاق سراحي، في قاعة ما زلت أذكر رقمهاB6، كانت قاعة أكثر نزلائها من المتهمين في قضايا جنائية، جُعلوا فيها في انتظار تحديد يوم محاكمتهم، بعضهم أمضى فيها سنة وبعضهم أكثر، والقليل القليل أمضى فيها أقل، ولم يكن هناك ممن سيحاكم في قضايا بسيطة غيري أنا وعمي احمد وشاب آخر في مثل سني يدعى فوزي، محبوس في قضية نفقة.

facebook.com/the.Boooks

تعرفت على فوزي في ثاني يوم لي في السجن، في واحدة من قاعات العبور المخصصة للمحبوسين ممن لم تصدر ضدهم أحكام نهائية، حيث كان السجن يحوي جناحين، واحد للرجال وآخر للنساء، وكل من الجناحين مقسم إلى ثلاثة قطاعات، الأول للأحداث من المسجونين القصر، والثاني للمدانين والمتهمين في قضايا تتعلق بالإرهاب، وقطاع ثالث للمتهمين والمدانين في قضايا تتعلق بالقانون العام، وكل قطاع من هذه القطاعات مقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم للعبور transite وفيه قاعات مخصصة لمحبوسين، تم إصدار أوامر حبسهم دون الحكم عليهم نهائيا، ويسمح لهؤلاء بالبقاء في لباسهم المدني، إلا أنهم يخضعون لنظام السجن الصارم، مثلهم مثل بقية المسجونين، ولكن دون أن يتمتعوا ببعض المزايا المتوفرة للمحكوم عليهم.

وقسم ثان مخصص للمحكوم عليهم أحكاما نهائية، دون أن تبلغ الإعدام، ويمكن تمييزهم ببدلاتهم الصفراء، لذلك تعارف نزلاء السجن على تسمية هذا القسم باسم "الصفرا"، وكان يمكن لهؤلاء طلب العمل في السجن والدراسة على عكس نزلاء القسم الأول.

وقسم ثالث للمحكوم عليهم بالإعدام، وكان هؤلاء يخضعون لإجراءات رقابة صارمة، ولنظام غذائي يختلف عن سواهم، كما لا يُسمح لهم بالعمل داخل السجن، ويمكن تمييزهم ببدلاتهم الحمراء.

في إحدى قاعات العبور تلك تعرفت على فوزي، وكان قد سبقني إليها بيومين.

دخلتها صبيحة الأحد، بعد أن أعيد توزيعنا على القاعات

facebook.com/the.Boooks

المتواجدة في القطاعين A و B على بعد حوالي مئة متر من القاعة التي قضينا فيها ليلة البارحة.

كانت القاعة تحمل رقم 5A، تشبه في تصميمها قاعة ليلة أمس ولكنها أقل طولا وأكثر رطوبة، كما تختلف في كونها تحوي جهاز تلفزيون ملون مقاس55، تم وضعه في الزاوية يمين المدخل، على دعامة معدنية ترتفع عن الأرض بحوالي الثلاثة أمتار، وجعل كل ذلك داخل قفص حديدي بقفل وباب، وذلك لمنع الاقتراب منه.

حين دخلت القاعة، كانت تكاد تفيض بالمساجين، فرغم أنها لا تتسع لأكثر من سبعين نزيلا، إلا أنها استضافت في ذلك اليوم ما تجاوز المائة بقليل، إلى درجة أنه استحال علي التقدم أكثر من خمسة أمتار تحسب من العتبة. حيث وجدت مكانا شاغرا فجلست فيه.

أماكن الجلوس والنوم في أي قاعة تحدد وفق معايير معينة، فلم يكن من الممكن لأي نزيل جديد، أن يختار مكانه بمفرده، دون استشارة رئيس القاعة " البريفو" le prévôt، وهو الاسم الذي يطلق على رئيس القاعة، ومعناه بالفرنسية الحاكم، وبالفعل فإن بريفو كل قاعة يشبه في صلاحياته داخل القاعة الحاكم مع الفارق.

أما أماكن الجلوس والنوم فكانت تختلف باختلاف النزلاء، وكان البريفو أكثرهم حظا، بحيث يمكنه أن يختار مكان نومه دون معارضة، ويليه في الحظ "الشاف كورفي"، وهو مثلما يدل عليه اسمه بالفرنسية المسئول على نظافة القاعة، وكلاهما تعينهما إدارة السجن من بين المساجين المحكوم عليهم، ممن لم يبق من فترة عقوبتهم إلا أشهر معدودة.

facebook.com/the.Boooks

وعـادة مـا يختـار هـذان الزاويـة الموجودة على يميـن المدخل بجـوار التلفـاز، أمـا البقية فيتوزعون على طول جداري القاعة، وكلما كان المكان بعيدا عن المغسل، كلما كان أفضل، فإذا انتهت الأماكن علـى طـول جـداري القاعة، يجلس الأقـل حظا بين صفي الجدارين، وهو ما تعارف المسـاجين على تسـميته بالوادي، وعلى عكس صفي الجدار، كلما كان المكان قريبا من المغسل، كلما كان أفضل.

المـكان الـذي جلسـت فيـه كان يقـع فـي الـوادي قريبـا مـن المدخل.

وضعـت بطانيتـي وجلسـت عليهـا، وأنا لا أزال غير مسـتوعب مـا حـدث لـي، وإذا بشـاب مفتول العضلات، يرتـدي دبardير أحمرا وسروالا رياضيا من الكاوي جلس القرفصاء قبالتي، كان حليق الوجه والرأس.

رمقني بنظرة غمسها في اللطف دون أن تبتل فعلا

اسمي مراد

ومد كفه وصافحني

أنـا هنـا الشـاف كورفـي، إذا احتجت إلى أي شـيء فسـتجدني هناك.

وأشار إلى الزاوية يمين المدخل

الشاف،

قلت متلعثما، فلم أكن قد سمعت هذه الكلمة من قبل.

نعم الشاف كورفي

ثم أضاف

facebook.com/the.Boooks

يبدو أنها أول مرة لك.

قال بنبرة مستكشف عظيم، اكتشف القارة الأمريكية مرة أخرى، ثم أردف وهو ينحني علي:

هذا الذي بجانب

وأشار بعينيه إلى شاب في الثلاثين من العمر، هزيل الجسم يرتدي معطف كناديان رمادي اللون.

حاول أن لا تصاحبه

ثم همس في أذني:

- ماشي رجل

وقبل أن أنبس بكلمة انصرف، موجها كلامه إلى الشاب:

فوزي، أتمنى أن تكون بخير

فرمقه فوزي بنظرة حقد، لم أر مثلها على وجه أحد من قبل.

" ماشي رجل"، هكذا وصفه وكان يعني أنه مخنث، ولكن لِمَ يقوم الشاف كورفي بتحذيري من رجل مخنث؟

بمجرد أن انصرف الشاف كورفي قال فوزي يكلمني:

انه يفعل ذلك ما كل محبوس جديد

قلت بصوت خاثر:

من المفيد أن يعرف الجدد المسئولين عن القاعة

بالطبع

قال وكأنه يرغب في إنهاء الحديث:

ولكنك تريد أن تقول شيئا آخر.

فقط، خذ حذرك منه

facebook.com/the.Boooks

ابتسـمتُ وقـد أعجبنـي كـم التحذيرات التي تلقيتـه في أقل من دقيقتين، وإذ ذاك قال فوزي بصوت فيه بداية غضب:

- علامَ تبتسم؟

- لأن غريمك حذرني منك أيضا

- وماذا قال أيضا؟

- شيئا آخر لم أصدقه

وحتى أقطع عليه أي استفسار آخر، سألته:

ماذا حدث بينكما بالضبط؟

لا شيء بعينه، ولكن طريقته في التعامل معي لم تعجبني.

قـال ذلـك وهـو يحاول تخير الكلمات، وكأنه يخشـى أن يفلت منه سر ما.

وإذ ذاك سألته جادا:

هل حاول التحرش بك؟

رمقني بنظرة إعجاب لا تخلو من دهشة:

ولكن كيف عرفت؟

أملك موهبة غريبة في تمييز المثليين والعاهرات.

ابتسم فوزي وهو يمد إلي كفه يصافحني:

اسمي فوزي..

ثم انصرفنا إلى حديث آخر، وبقينا كذلك نتحدث في أي شيء حتى حان موعد الخروج إلى الساحة.

الخروج إلى السـاحة، من الإجراءات المتبعة في كل السـجون،

facebook.com/the.Boooks

ولكنها تختلف بحسب طبيعة المسجونين، حيث لا يسمح لنزلاء قسم الترانزيت بالفسحة إلا مرة واحدة في اليوم، ويكون ذلك إما في الصباح وإما في المساء بحسب الدور، فإذا خرجوا صباحا يوم السبت، فإنهم يوم الأحد لا يخرجون إلا مساء، وهكذا دواليك. إلا يوم الجمعة فلا يخرجون من قاعاتهم.

أما نزلاء القسمين الآخرين، فيسمح لهم بالفسحة مرتين في اليوم، واحدة في الصباح ومرة أخرى بعد الظهر، وتدوم كل فسحة بين الساعتين والأربع ساعات، بحسب الظروف وطول النهار.

خرجنا في طابور من صفين، وكان إذ ذاك فوزي واقفا بجانبي، ثم سرنا في اتجاه الداخل بعد أن قام الشاف كورفي والبريفو بِعدنا مرتين، وبعد أن تحقق الحراس من عددنا وطابقوا حساباتهم وحسابات البريفو والشاف كورفي.

الطريق المؤدي إلى ساحات الفسحة يمر ببناية تقع فيها مكتبة صغيرة، بدت شبه خالية من الرواد، كان هناك شاب بدا في أواخر العشرينات من عمره يقف أمام بابها، يرتدي سروال جينز أسود، ضيقا بشكل مخيف، وقميصا حريريا فتح أزراره العليا، كاشفا عن صدر مشدود لا شعر فيه، كما كان يضع فيما يبدو كحلا بالغ في كميته.

ما إن مررنا قربه، حتى بدأ البعض في معاكسته وهو يبتسم ويتلوى، والحراس المرافقين لنا يتهامسون ويضحكون.

كان هذا واحد من الشواذ المسجونين، خصصت لهم إدارة السجن قاعة خاصة بهم، كما أن الحراس يمنعون كل مسجون من

facebook.com/the.Boooks

الاختلاط بهم، خوفا من انتشار الأمراض الجنسية في السجن، ولكن ذلك لم يمنع من حدوث بعض الحوادث المتفرقة، خاصة في قاعات الترانزيت التي يصعب فيها مراقبة المساجين وتمييزهم.

على بعد أمتار من المكتبة، يقع محل المواد الغذائية المعروف باسم الكانتينا، والذي يزود المسجونين بمختلف المواد الممنوع دخولها من الخارج، كالقهوة والمشروبات الغازية المختلفة وغيرها من مواد. أما طريقة الدفع فتتم بطريقة بسيطة: يقدم المسجون إلى البريفو قائمة مشترياته مزودة برقمه التسلسلي، الذي بدوره بتقديمها إلى الإدارة التي تتحقق من المال المودع في خزنة الأمانات وتقوم بسحب المبلغ المقابل لقيمة المشتريات.

حين بلغنا ساحة الفسحة، بادرني فوزي بسؤال:

هل يعلم أحد أنك هنا؟

أجبت بتلقائية: "لا.. لا أظن".

- وكيف تفعل إذا طال بك المقام هنا؟

قال ذلك ثم استدرك نفسه وهو يري الدهشة في وجهي:

- لا أقصد أن مقامك سيطول، إنما لا ضير في أن تأخذ احتياطاتك.

كان محقا في رأيه إلى حد ما، ولكنني كنت آمل أن يقوم إسماعيل بإخبار أمي وزوجتي إذا طال الأمر، والى ذلك الحين طلبت منه أن يزعم لهما أنني في مأمورية عاجلة، تطلبت سفري في الحال،

facebook.com/the.Boooks

كل ذلك رأفة بأمي التي عانت بما يكفيها.

دخلنا الساحة التي كانت مكتظة بنزلاء القاعة رقمA6، حيث كان نظام السجن يقتضي أن تضم كل ساحة نزلاء قاعتين، حتى يناسب عدد الساحات عدد القاعات، فلمحت بينهم عمي احمد الصوري، يسير مع بعض الشباب دون أن يحدثهم أو يحدثونه، وكان آخرون يفعلون مثلهم، كانوا يدورون حول الساحة دون توقف أو ملل. في البداية استغربت من أمرهم ولكنني فهمت مع مرور الأيام، أنها رياضة مشي اخترعها المسجونون حفاظا على بعض لياقتهم.

facebook.com/the.Boooks

- 2 -

في الساعة التاسعة من اليوم التالي، وقف مسجون يرتدي مئزرا أبيضا، أمام باب القاعة وأدخل رأسه من فتحة صغيرة تتوسط الباب وأخذ ينادي: "كل من سيحاكم اليوم يستعد للخروج".

كان هذا أحد العمال المساجين المكلفين بنقل رسائل الإدارة إلى نزلاء السجن، والعمال المساجين هم من المحكوم عليهم أحكاما نهائية، تسخرهم الإدارة للعمل بمقابل، يسهرون على تيسير عمل الحراس والإدارة على السواء، ولتمييزهم عن بقية المساجين جعلهم الإدارة يرتدون أزياء تختلف عن بدلات المساجين الآخرين، فعمال الإدارة والعيادة والمطبخ والحلاقون يرتدون مآزر بيضاء، في حين يرتدي عمال النظافة والمكلفين بتوزيع الوجبات أزياء رمادية اللون، وهؤلاء يعرفون باسم "الكونفوايور"، وهي كلمة في أصلها فرنسية تعني سائقي العربات، وأكثر عملهم بالفعل هو جرّ العربات على مختلف أنواعها.

إلا أن عمل هؤلاء لا يقتصر على ما تأمرهم به الإدارة والحراس فحسب، بل يتعداه إلى خدمة المساجين أنفسهم، فغالبا ما يُسِدون إليهم بعض الخدمات وجميعها بمقابل أيضا.

طويت بطانيتي وسلمتها لفوزي ليحفظها في غيابي، فقد كانت البطانيات أكثر ما يسرق في فصل الشتاء، ثم ما أن فتح الباب حتى هرعت خارجا.

facebook.com/the.Boooks

هذه المرة لم يكن هنالك طابور ولا صف، إلا أنني كنت أتبع الخارجين معي، وهم بدورهم يتبعون السجين العامل الذي انتهت مهمته عند الباب الأول، وهناك وجدنا حراسا نظمونا في طابور وجعلونا ندخل الأبواب والساحات التي رأيناها عند دخولنا السجن أول مرة، وقبيل صعودنا حافلات السجن الصغيرة، قاموا بعدنا مرتين أو ثلاثة، وفي كل مرة كان المسئول على الحراس يضرب كفا على كف ويقول:

- تأخرنا ولا يمكن نقلهم دفعة واحدة

وإذ هو كذلك، باغته صوت جاء من الخلف:

ماذا يفعل هؤلاء هنا؟.

كان هذا مدير السجن، رجل في نهاية العقد الخامس، ربع الطول ببشرة سمراء، يرتدي بدلة غريبة اللون وربطة عنق.

سيدي، هؤلاء محبوسون يحاكمون اليوم.

قال المسئول عن الحراس وهو يؤدي له التحية، وفعل بقية الحراس مثله

- ولماذا ما زالوا هنا حتى الساعة؟

- سيدي، "قال الحارس المسئول"، إن الحافلتين لن تسعا عددهم، فهم يقاربون الأربعين.

كان الحارس المسئول مصيبا، فقد صممت كل حافلة لتسع أربعة عشرة فردا على أقصى تقدير، إلا أن المدير أمر أن نحشر في الحافلتين حشرا، فنفذ الحارس المسئول الأمر على مغص.

وهكذا انطلقنا، لا يعرف الواحد منا يديه من يدي صاحبه،

facebook.com/the.Boooks

حتى بلغنا محكمة الحراش. فدخلنا المحكمة من الخلف، من الجهة المقابلة لعمارات الأشلام، ثم نزلنا طابقها الأرضي الواقع على يسار المكاتب المخصصة لاستخراج الوثائق القضائية، وحين بلغناه انعطفنا يمينا حيث توجد زنزانتين صغيرتين تقعان بجوار بعضهما وتقابلهما زنزانة ثالثة أقل حجما تخصص عادة للنساء، في حين يقع المرحاض عند المدخل مباشرة.

كان عددنا يومها تسعة وثلاثون فردا، تم توزيعنا على الزنزانتين المتجاورتين ونحن لا نزال في القيد، وحين تم ذلك وأغلقت بابا الزنزانتين، بدأ شرطي السجن بنزع قيودنا، فكان كل اثنين مقيدين ببعضيهما يمدان يديهما عبر القضبان، ويقوم الشرطي بنزع القيد والاحتفاظ به. ولما انتهى سلم كل القيود إلى الشرطي المصاحب لنا الذي تأكد من عددها ووضعها جانبا.

نظام الجلسات الجنحية في الحراش، يقتضي ألا ينظر القاضي في قضايا المتهمين المحبوسين إلا بعد أن يفرغ من المتهمين غير الموقوفين، لذلك فقد مكثنا قرابة الساعتين ننتظر بداية المحاكمات، ونحن مجبرين على الوقوف لضيق المكان. وفي حوالي الواحدة والنصف بدأ شرطي المحكمة بدعوة المحبوسين للمثول أمام القاضي، في أفواج من ثمانية، وهو أقصى ما يستوعبه قفص المحبوسين في قاعة المحكمة، يدخلون إليه عبر سلم إسمنتي يربط الطابق التحتي وقاعة الجلسات.

لم تمض ساعة حتى حان دوري.

أعترف أنني كنت خائفا، ليس بسبب خطورة تهمتي، بل لأن

facebook.com/the.Boooks

القاضي رئيس الجلسة هو " السوفي"، أكثر قضاة الحراش قسوة وصرامة، كان إذا وقف متهم بين يديه، يقف منكسر النفس لا يرجو من الرحمة حتى نسيمها، يجعل يديه خلف ظهره ولا يجرأ حتى على النظر إليه، فقد كان أرحم ما يحكم به "أقصى العقوبة".

دخلت قاعة الجلسات مع سبعة آخرين، حيث أمرنا شرطي المحكمة بالجلوس في قفص الاتهام، ومن هناك استطعت أن ألمح إسماعيل جالسا في أول صف، فحاولت التلويح بيدي ليراني، إلا أن الشرطي نهرني بلطف وهمس لي:

- لا تجعل القاضي يلاحظك.

في الجلسة حدث شيء غريب، فكلما حان دوري، يقوم القاضي بإرجائي لاحقا، وهو يقول " ليس الآن، فيما بعد"، إلى أن انتهى من النظر في قضايا المحبوسين ممن كانوا برفقتي.

وأخيرا مثلت أمامه. بدا في نهاية الأربعين، هزيلا ولكن في صحة جيدة. وحينها قرأ اسمي واسمي والدي وبعض المعلومات الخاصة بي، وحين انتهى حدق في مليا ثم صاح في:

- لماذا تقف هكذا. ضع يديك خلف ظهرك

وإذ ذاك وقف شاب في الثلاثين يرتدي جبة سوداء وقال:

- عفوا سيدي القاضي..

فهز السوفي رأسه بما يعني " قل.. "

فتقدم المحامي الشاب منه وخلفه إسماعيل يتبعه، حتى كاد يبلغ منصة القاضي، أما إسماعيل فوقف بجانبي.

facebook.com/the.Boooks

قال المحامي الشاب موجها كلامه لوكيل الجمهورية والقاضي معا:

- وكلتنـي زوجـة المتهـم ومعي هنا بحوزتي ملفا، أود أن تطلع عليه هيئة المحكمة الموقرة، ثم تقدم أكثر من منصة القاضي وسلمه ملفا وسلم مثله وكيل الجمهورية، في حين همستُ إلى إسماعيل:

- هل أعلمت أمال؟

- نعم، حين كنا معا في الكافينياك

- ولكننـي طلبـت منـك ألا تخبرهـا إلا إذا طـال مكوثـي فـي السجن.

- أعلم، ولكن الأمر سيطول أكثر مما تتصور

كنـت سأسـأله كيـف عـرف ذلـك، إلا أننـي شـعرت بنظـرات القاضي ووكيل الجمهورية وباقي الجالسين في قفص الاتهام، تنتهك خصوصيتي. حينها أدركت خطورة ما يقوم به إسماعيل:

- إسماعيل. "قلت وأنا أهمس". عليك أن تنصرف من هنا، فلا يجوز وقوفك في هذا المكان

وإذ ذاك شـدني المحامـي الشـاب مـن كمـي، مشـيرا إلى بعينيه المتواريتين خلف نظارته السميكة، أن أنظر صوب القاضي

إذن فأنت أستاذ جامعي

قال القاضي وهو ينظر في ملفي مبتسما، ودون أن ينتظر إجابتي أضاف:

كيف يمكنك أن تدرس في الجامعة؟

هذا لأن معي شهادة ماجستير في الرياضيات

facebook.com/the.Boooks

ضحـك القاضـي ووكيـل الجمهوريـة، في حين ارتسـمت على شفتي المحامي الشاب ابتسامة متكلفة.

– أعلـم ذلـك يا أسـتاذ، فكل شـيء في ملفـك، كما أعلم أنك تملك شهادة في القانون أيضا

قال ذلك وهو ينظر في ملفي من جديد

– أتمنى فقط أن لا يكون الملف الذي قدمه محاميك مزيفا.

تدخل المحامي فورا:

– لقـد تحققـت سـيدي القاضي مـن كل وثيقة في الملف، وقد أرفقت فيه قائمة بالأسماء والعناوين ستسمح لحضرتكم والسيد ممثل الحق العام بالتأكد من حقيقة وكيلي، والى حين ذلك نطلب الإفراج المؤقـت عـن المتهـم بضمـان مسـكنه أو أي ضمان تطلبـه المحكمة الموقرة.

– ما رأي ممثل النيابة العامة؟

سأل السوفي موجها كلامه إلى وكيل الجمهورية.

– نطلـب مـن حضرتكـم إبقاء المتهم رهن الحبس إلى حين أن يبث في أمره.

– سيدي القاضي. " تدخل المحامي الشاب". إن موكلي أستاذ جامعي مرموق ويعرف القانون وما يفرضه إذا حاول الهرب، بالإضافة إلى أنه لا يحمل جواز سفر، لتخشى هيئة المحكمة الموقرة فراره أو خروجه من الوطن و،.

قاطعه القاضي:

– أسـتاذ. طلـب الإفـراج المؤقـت مرفـوض، والـى حين مثول

facebook.com/the.Boooks

المتهـم أمامنـا بعـد خمسـة عشـر يوما، سـندرس الملـف المقدم من قبلك.

ثم وجه كلامه إلي:

- أنصحك أستاذ، إذا كنت تمثل علينا أن تعترف الآن، وأعدك أنني سأرأف لحالك.

همست لإسماعيل في عجالة:

ماذا يقصد؟

فصرخ في، وقد قطب حاجبيه واحمر وجهه:

- هيه، أنا أحدثك،

فتدخل المحامي:

- سـيدي، أرجـو أن تعذر موكلـي، فالملف الذي بحوزتك من شأنه أن يشرح لك حالته

- حسنا، حسنا،

ثم لوح للشرطي وقد عاد إليه هدوؤه:

- خده إلى أسفل

هكذا صدق حدس إسـماعيل، سـيطول بي المقال في السـجن خمسة عشر يوما أخرى.

وإذ ذاك، لمحت أمال واقفة بين الحشد وعيناها تفيضان دمعا، يسـيل علـى وجنتيهـا الورديتيـن ماء أسـودا، وقد خالـط الدمع كحل عينيها.

facebook.com/the.Boooks

- 3 -

كانت الساعة السادسة حين دخلت قاعة السجن، كنت منهكا، محبطا، ليس لأنني سأقضي خمسة عشر يوما أخرى في السجن، بل بسبب ما رأيته من حزن في عيني أمال وأنا أخرج من قاعة المحاكمة، كانت نظراتها تجمع بين الشفقة علي والأسى على نفسها، في حين كنت عاجزا حتى عن مواساتها..

" هل كان على إسماعيل أن يخبرها"

لف فوزي ذراعه حول كتفي، محاولا مواساتي:

- لا عليك، ستنقضي هذه الأيام كما انقضت سواها.

ثم افترشنا في الوادي، نكاد نلتصق بباب القاعة، وما زلنا نتحدث حتى نام فوزي، أما أنا فبقيت مستيقظا لفترة أطول، أطول بكثير.

بعد يومين قررت وفوزي مغادرة القاعة بعد أن كثرت فيها أعمال النهب والسرقة، دون أن يستطيع المسؤول على القاعة منعها، أو دون أن يسعى إلى منعها، فقد كان فيما أعتقد على معرفة بمن يسرق وبمن يُسرق، ولكنه كان يغض بصره خوفا من السراق ورغبة في الحصول على نصيب من السرقة، خاصة إذا تعلق الأمر بسرقة

facebook.com/the.Boooks

السجائر فقد كان مدمنا عليها إلى حد الهوس.

ومن حسن حظنا أنْ كان لفوزي قريب من أهله يعمل حارسا في السجن عمل على تيسير الأمر علينا، ولولاه لكنا كمن طلب الجنة لأبي لهب.

إلا أن فوزي سرعان ما طلب نقله من جديد، حيث اكتشف أنها قاعة لا تدخلها الشمس إلا لتخرج منها، إذ كانت تقع أسفل مبنى من ثلاثة طوابق، تحاصره بنايتان شرقا وغربا، فكانت قاعة كثيرة الرطوبة لا تصلح لمن كان يعاني الربو مثل فوزي، الذي كاد يموت في أول ليلة.

وهكذا وجدتني بمفردي وسط مساجين أقل جرائمهم خطورة الاغتصاب، إلا أن ذلك لم يحبط من عزيمتي، فلم يكن بيني وبين حريّتي إلا أيام قررت أن أقضيها كيفما شاء.

رحيل فوزي جعلني أشعر بالوحدة، فقد كان أكثر من عرفت هناك إيمانا ببراءتي، وأكثرهم رفقا بي، حتى نشأت بيننا علاقة تشبه الصداقة دون أن تبلغها، كان في مثل سني، تشغله هموم "الخبزة" مثلما تشغلني، وبالكاد كنت أرى الفارق بيننا، عدا أنه كان نسخة اجتماعية لأي جزائري محبط من جيلنا، ولد وترعرع في جزائر الحقوق وأمضى مراهقته في جزائر الموت وها هو يعيش الآن في جزائر الواجبات، وبين جزائر الأمس وجزائر اليوم ضاع وسط زحام المهرولين إلى الثراء السريع، لكنّه اختار مثلي تماما التخندق والتوقف عن الهرولة، وقرر أن يتزوج.

وبالفعل تزوج من فتاة قال إنه أحبها من أول نظرة، ثم ما لبثا أن أنجبا فتاة استطاع بطريقة ما أن يدخل صورتها معه، فكان النظر إليها أكثر ما يفعل طوال اليوم.

facebook.com/the.Boooks

غير أن سعادته سرعان ما قض مضجعها واقع أجره المتواضع وعجزه على تلبية طلبات زوجته المستمرة، ليس لأنها ولدت وتربت في بيت ثراء وعز، بل لأنها رجت من زواجها ـ من فوزي ـ أن يخلِّصها من الفاقة والعوز، ولعلها كانت تعتقد أن ما منحته لها الطبيعة من حسن وجمال يبرِّر مطلبها في العيش الرغيد، ولأن فوزي كان يحبها قرَّر أن يسعدها ويمنحها ما تحب، فراح يعمل في كل شيء وأي شيء، حتى صار بالكاد ينام.

ربط الوظيفة بالوظيفة، الليل بالنهار دون أن يفتح للتعب شقا يدخل منه، حتى حالفه الحظ مثلما اعتقد وحصل على عمل في الجنوب، فكان يعمل لشهر ونصف الشهر ويعود إلى زوجته وابنته أسبوعا واحدا يقضيه معهما، إلا أن زوجته اكتشفت أن عمله هذا يمنحها ما تحب و في المقابل يسلب منها أفضل ما جبلت عليه (الجنس)، فقررت أن تكمل سعادتها بشقائه، واتخذت من طالب جامعي يصغرها بعشر سنوات عشيقا لها.

قال فوزي: " كنت حينها ما زلت أحاول جاهدا إسعادها، وعكس ما قد تتصور، كنت مدركا أنها تستغلني وأن طلباتها تزداد كلما ارتفع دخلي، إلى درجة أنني رغم ما كنت أجنيه لم أستطع التوفير حتى لشراء سيارة مستعملة، ولكنّني لم أحتجَّ لأنها كانت تعرف كيف تجعل من غضبي مزحة، لا نستذكرها إلا لنضحك، فقد كان يكفيها أن تقول لي أحبك، حتى تمّحي جميع مشاكلي مهما عظمت، وأحيانا حين تتجاوز كل حدٍّ تستعين بابنتنا لتمنع عنها نوبات جنوني، ولعل أكبر أخطائي أني رضيت بحياتي الجديدة وبما آلت إليه الأمور، وحسبت أن ما كانت تظهره لي من رضى كاذب في الحياة وفي الفراش، هو أعظم ما يسعى إليه أي زوج، حتى بدأت أشعر

facebook.com/the.Boooks

ببرودتهـا نحـوي، فقـد كنا آخر عهدنا ببعضنـا نتطارح الغرام دون أن أشـعر أنها معي، فقد أصبحت باردة فكأنني أمارس الجنس مع جثة ميـت، وحيـن تنتهـي تسـارع إلى الحمام لتغتسـل ثم تعـود لتنام دون أن تنبس بكلمة، في حين كنت أبقى بمفردي أسـأل نفسـي "ما الذي يحدث بيننا".

وكأيِّ محـبٍّ كنـت أبرئهـا مـن كلِّ ظـن، ملقيـا كل اللَّوم عليَّ، واسـتمر الوضع على ما هو عليه ثم راح يسـوء، وبقينا أشـهرا نعيش في بيت واحد، على سـرير واحد، تحت غطاء واحد دون أن تسـمح لي بالاقتراب منها، وهي التي كانت كآلة جنس لا يشبعها شيء؛ رغم ذلك حاولت أن ألتمس لها الأعذار، بل وجدت لها من الأعذار ما لا يقبله العقل، ليستمر زواجنا على الورق ويموت على السرير".

كان فوزي وهو يقصُّ عليَّ قصته، أشبه بمن يعترف بخطيئة لم يقترفهـا، كان مفرغـا مـن كل روح، مستسـلما لأمره كأعمى استسـلم للظلمة بعد أن فقد كل رجاء في النور.

لعـل هـذا مـا جعلني أستحسـن صحبته، وربما هـذا ما جمعنا، أقصد الحزن والمزيد من الحزن.

وفي لحظة صحوة، قرر فوزي أن يسألها، وكان من الغريب أنه لم يسألها من قبل، ولكنه في لحظة قوة عابرة، جمع شتات شجاعته وسألها، وفي قرار نفسه أنه كان يرجو أن تمتنع عن الإجابة، فقد بدأ يفكـر فـي أمـر خطير، ولكنه كان كلّمـا همّ بالتفكير حاصرته ذكريات حبها له، أصبحت قصة حبه الطويلة الممتدة من سنوات طفولته مجرد ذكريات، حكاية يقصها على مثلي ممن يملكون الوقت للاستماع إليه، وفـي مثـل مـكان كهـذا، يصبح الوقـت آخر ما يفكر المـرء فيه، وهو أمر طريف لو تمعَّنت فيه، فغالبا ما كنت أتحجج عن لقاء أمال أيام

facebook.com/the.Boooks

خطوبتنا بقلة الوقت، ثم أصبح عدم توافره أكثر ما أبرر به قلة خروجنا معـا بعـد الـزواج، حتـى أن أمـي لـم أعـد أزورها إلا مرة في الشـهر، وكلما سألتني عن قلة زياراتي لها أتهم الوقت لأبرِّئ نفسي، أما هنا فكان الوقت متوفرا أكثر من اللزوم، بل أحسـبه أحيانا يتمدد إلى ما لا نهاية، كأنني في ثقب أسـود يتباطأ ويتمدد فيه الزمن حتى تحسـبه توقف أو انعدم.

توافر الوقت ليس ما دعاني إلى الاهتمام بقصة فوزي، ولا حتى ما تحتويه من مأساة ففي حياتي أضعافها، كان صدقه وهو يقص عليّ حكايته هو الذي جعلني أهتم له، فلطالما رأفت بحاله حين كنت أراه وهـو يحكـي مشـدوها لما آلـت إليه حياته، حياة كانت تضخ سـعادة وتحولت بين طرفة وطرفة جحيما لا يطاق.

وبدأ الجحيم لحظة تجرأ وسأل زوجته عن سبب نفورها منه، أو لحظة ظن أنها لن تجيبه، ولكنها أجابته، أخبرته عن عشيقها وأسرفت في الحديث حتى قارنت بين فحولتهما، في حين ظل صامتا ألجمته الدهشة.

حينهـا فقـد كل قـدرة علـى الكلام، ثم أي كلام يمكن أن يقوله زوج لزوجته وهي تعترف صراحة بخيانتها له، كان يمكن أن يجد أي شـيء يقولـه لـو كان اعترافها بغرض التوبة والنـدم، لكنه كان اعترافا للتبجّح، وكأنها كانت تعلم مسبقا ألا حيلة له غير الصمت والانفجار بداخله.

بعـد اعترافهـا، لـم يكـن أمامه مـن حـل إلا أن يطلِّقها، فعرض عليها ذلك فرحبت بالأمر، ولكنه اشترط عليها أن تبقى ابنتهما معه،

facebook.com/the.Boooks

فـلا يعقـل أن يتـرك ابنتـه مـع مومس، إلا أنها رفضـت وأصرَّت على الاحتفاظ بها.

بعد أشـهر من الذهول، أراد أن يمسـك زمام حياته من جديد، وكانا لا يزالان في البيت نفسـه، قصد محاميا فنصحني بالتريث إلى حيـن أن يثبـت عليهـا خيانتها، فحينهـا يمكنه أن يطلقها دون أن يفقد حـق حضانـة ابنتـه، ومـن أجل ذلك كان عليه أن يهادنها إلى حين أن يجـد وسـيلة إلـى ذلـك، فجعلها تتصـور أنه عائد إلـى الجنوب، في حين اسـتأجر شـقة في نفس الحي لتسـهل عليه مراقبتها، وكل أمله أن يتمكـن مـن القبـض عليهـا متلبسـة مـع عشـيقها، ولكـن الأمر لم يحدث كما خطط له، فلما يئس قرر أن يجعلها تتنازل عن الحضانة مقابـل مبلـغ مـن المـال، وحين عرض عليها الأمر، قبلت شـريطة أن يحضر لها المال مسبقا فوافق على أن تمنحه مهلة ليجمع ما طلبته، فلم يكن له من خيار إلا أن يبيع شـقته التي ورثها عن أبيه وأعطاها مـا اتفقنـا عليـه، ولـم يبق معه إلا ما مكِّنه من تأجير شـقة أخرى، ثم حـددا موعـدا مع المحكمـة ليبدآ إجراءات الطلاق، إلا أنها لم تأت، فهاتفهـا. أخبرتـه أنهـا تعرضت لحادث وتريـد منه زيارتها، لبى طلبها دون تردد ولكنه ما إن بلغ عتبة منزل أبيها، حتى قابله إخوتها بالسب والشـتم وكاد والدها أن يقتله لولا قدوم رجال الشـرطة، حيث كبلوه واتهمـوه بضـرب زوجه، وبالفعل حوكـم وحضرت زوجته المحاكمة وكان وجهها منتفخا مملوءا بالكدمات وفي المحاكمة علم أنها تتهمه بضربها، فحكم عليه بسنتين أمضى منها ستة أشهر.

فقـد فـي لحظـة كل شـيء، ابنتـه، مسـكنه، وفـي الأخيـر فقـد حريّته.

ثـم مـا لبـث فـوزي فـي السـجن وقتا حتـى طلبت منـه الطلاق

facebook.com/the.Boooks

وحضانـة الطفلـة وحصلـت وقبـل أن يمض شـهر علـى الحكم عليه بالسـجن، طلبـت زوجتـه منه الطلاق وحضانـة الطفلة وحصلت على كليهمـا، ثـم طالبتـه بحقهـا في النفقة وهي تعلم أنه في السـجن ولن يستطيع دفعها.

نقـل فـوزي إلـى قاعـة أخـرى وبقيت لا أحدِّث أحـدا حينا من الوقت، حتى تعرَّفت على بعضهم، زعمت لهم كاذبا أنّني من حيهم، فقـد اكتشـفت فـي أيامـي القليلة في السـجن أن البقاء سـالما يقتضي البقـاء فـي جماعـة، فاختـرت رفقة جماعة يهاب جانبهـم، وكانوا في معظمهـم مـن براقـي والكاليتـوس، وجميعهم من أصحاب السـوابق وأخطرهـم كان شـابا فـي الثلاثيـن متهـم بجريمة قتل يدعـى قاديرو، قتل شـابين في جلسـة خمر، قال إنه قتلهما دفاعا عن شـرفه حينما حاولا الاعتداء عليه، والحقيقة أنني استغربت الأمر، فهو شاب طويل ضخم الجثة، كثيف الشعر ذو وجه أسمر تملؤه الندوب بشكل مقرف، ورغـم بـرودة القاعـة وميله إلى ارتداء الثياب الصيفية دون غيرها فقد كان كثير التعرق، رائحته نتنة كجيفة بدأت في التفسخ، في حين كان فمه يصدر رائحة هي مزيج بين رائحة لثة فاسدة ورائحة التبغ الذي لا يفارق شـفتيه، فكان بالكاد يسـتطيع أكل شـيء صلب بسبب طاقم أسنانه الصفراء التي لم يبق منها إلا بعضها، لهذا استغربت أن يشتهيه أحد، حتى وإن لعب بعقله الخمر أو أي مخدر مهما بلغت قوته.

ثم ما لبث أن نقل إلى القاعة شخص لم يكن قط في الحسبان، عمي احمد الصوري، فما كاد أن تطأ قدماه القاعة حتى همّ الجميع إليه مصافحين مهلِّلين، وعلى وجهه رسمت ابتسامة عريضة تدل على الامتنان كنجم يحاول إرضاء جمهوره.

facebook.com/the.Boooks

وكأي ضيف يحب المستضيف إرضاءه، قام بعضهم واختاروا له مكانا في مقدمة القاعة بجانب الجدار وسارع بعضهم وأحضروا له سيجارة وقهوة، في حين شكل آخرون حوله حلقة وأخذوا يحدثونه ويسألونه عن أحواله، كان الجميع مهتما بعمي احمد الصوري، باستثناء ابراهيم باديبا المسؤول على القاعة، وكان إبراهيم هذا إفريقيا مسلما لم أعرف جنسيته، وكان يقضي آخر شهرين من عقوبة سبع سنوات أمضاها كلها في الحراش، لذلك تم تعيينه رئيسا على سجناء القاعة رقم B6.

ومن فرط معاشرته للمساجين أصبح يتكلم الدارجة بطلاقة، ولولا بعض سقطات لسانه لما استطاع أحد التمييز بينه وبين أي جزائري.

لباديبا قصة جعلته مهابا بين بقية المساجين، ولولاها لما قبل به نزلاء القاعةB6 رئيسا عليهم، قصة جعلت منه بطلا في أعين الآخرين، شبيهة بقصص الأبطال التي عادة ما تستهوينا مشاهدتها، ولكن قصة باديبا لم تكن بهذه الشهامة.

رؤية عمي احمد الصوري، جعلتني أفكر جادا أن تواجده معي في كل قاعة أنتقل إليها لم يكن مصادفة، فالمصادفة مجرد مرادف خاطئ لكل حادث غير محسوب وغير متوقع، يتكرر حدوثه بشكل استثنائي، وأنا مع إيماني المطلق بالقضاء، أجد أن المصادفة لا تليق بمن يؤمن بالقدر، لذلك أقنعت نفسي أن لوجوده غاية لا بد أن تتكشّف، إلا أن ما كان يزرع بعض الشك في يقيني هذا أن عمي احمد الصوري لم يسع إلى التعرف عليّ مثلما لم أسع إلى التعرف عليه، بل وكنت متيقنا أنه لم يلحظ وجودي حتى، مع كل هؤلاء الذين كانوا يشغلونه بأحاديثهم والسؤال عن أحواله.

facebook.com/the.Boooks

أحسب أن بعض ما شدّني إليه، هو شعوري نحوه بألفة غريبة، لا تصلح إلا بين من هم على تعارف قديم، فكانت نفسي تتوق إلى محادثته، كما يتوق الصاحب إلى صاحبه، ولولا استهجاني ذلك لكنت قد قمت إليه مسلّما دون أن آبه بما قد يفكر فيه، بل وكدت أن أطلب من قاديرو أن يعرّفني به حين تبين لي أنه يعرف الشيخ جيدا، فحسب ما أخبرني به، فقد أمضيا فيما سبق أعواما معا، حين كان عمي احمد الصوري يقضي عقوبة العشرين عاما:

"حينها كان لا يزال محتفظا بقوته، إلا أنه لم يستعملها في غير محلها قط، فطوال عشرين عاما أمضاها بين سجون الحراش، لامباز والبليدة، لم يتشاجر إلا مرتين أو ثلاثا، وفي جميعها كان صاحب حق، وهذا بشهادة من يتشاجر معهم، وفي كل مرة كان يصرع خصمه بضربة واحدة، ومن حسن حظي أنني حضرت إحداها، كنت حينها في الثامنة عشرة أو تزيد بقليل، أفزعتني يومها قوته، فقد رأيته يترجى خصمه ويستسمحه، إلا أن المغفل ظن به الضعف، والحقيقة أن عمي احمد رأف لحاله وأشفق عليه، إلا أن الرجل تمادى في ظنه وخادع عمي احمد بلكمات لو تلقاها جبل لانهار، ولكنها كانت في وجه عمي احمد وعلى صدره كقبلات امرأة أو قرصات بعوضة لا غير، ورغم ذلك لم يتراجع الرجل وحاول إسقاط عمي احمد، فكان يشدُّه إليه دون أن يشد، فكأنه كان يسحب صخرة لا تتقدم ولا تتأخر شبرا واحدا، وظلا على ما هما عليه حينا من الوقت، وعمي احمد يحاول تهدئته وهو الغالب، وخصمه يحاول معه دون جدوى، حتى سقط لوحده أرضا من الإعياء، وهو يشتم ويسب، وعمي احمد غير آبه، حتى أخطأ الرجل خطأ حياته، حين ذكر بنات عمي احمد ووصفهن بالعاهرات، حينها لم نر قد بقيَ من الشجار إلا رجلا غارقا في دمائه،

facebook.com/the.Boooks

بعـد أن كسـر فكـه وبعضـا من ضلوعه، ثـم علمت لاحقا أنه نجا من المـوت بعـد أن قضـى ثلاثة أشـهر في المستشـفى، ومـا أن عاد إلى السجن حتى طلب نقله إلى أي سجن آخر".

ما أعجبني فعلا أن قاديرو الذي هو واحد من أكثر المسـاجين شراسة، رسم لعمي احمد الصوري هكذا صورة، لقد كان ظاهرا في كلامـه أنـه يكـنّ لـه احترامـا لا يكنه حتى لأبيه، ولـم يكن إعجابه به بسـبب فتوّته بقدر ما كان بسـبب ما يميزه عن بقية المسـاجين، فلم يستطع السجن رغم قساوته، أن يقتل الإنسان فيه، ورغم ما كان عليه من قوة لم يحاول قط أن يفرضها على غيره، بل أمضى سنوات سجنه العشرين في عزلة إرادية، فكان كما يقول قاديرو "معنا وليس معنا".

لـم يكـن مـا جمعتـه من معلومـات حول عمي احمـد الصوري كافيا لأقتنع بقصة قتله لابنته الفاسدة، بل كان كل ما جمعته يجعلني أستغرب هذه القصة، رغم أن الجميع بمن فيهم قاديرو مجمع عليها، مع فارق في التفاصيل طبعا، فبعضهم يقول إنه خنقها بيديه، والبعض يقـول إنـه خنقها بوسـادته، وآخرون يزعمون أنـه ذبحها ذبحا، إلا أن جميع الروايات تؤكد أنه قتل ابنته ليلا، وكل قصص المساجين تجمع على أنه سلَّم نفسه واعترف بجريمته رغم أنه كان خارج كل شكوك، بل ويقولون إنه طلب من المحكمة أقصى عقوبة.

ما استهجنته في المقابل أن تجتمع صفات الرجولة التي ميّزت عمـي احمـد الصـوري وصفـات القاتـل السـفاح في الشـخص ذاته، ولكننـي كنـت أقـول أيضا "وما أدراني؟"، فقد يبلغ الرجل المتزن في لحظات جنون حالة من الهيسـتيريا لا يبلغها المجنون حتى في أكثر مراحل جنونه خطورة.

facebook.com/the.Boooks

فمـرة وأنـا فـي العاشـرة مـن عمـري، حين كنت أقضـي العطلة الصيفيـة فـي منـزل خالي سـيدي احمـد بن يونـس، وكان منزله فيما سـبق اسـطبل حمير لأحد المعمرين الإسـبان، استولى عليه خالي إثر نزوله من الجبل، فبلّط أرضيته وطلى جدرانه، وجعل فيه حوشا وبئرا أعاد ترميمها، ولعله لم يجد وقتها إلا الاسطبل ليسكنه فرضي بذلك، بعد أن سبقه آخرون ممن لم يعرفوا الجبل مثله إلى مساكن المعمرين الفاخرة، وأحواش القايد والشنابطية ممن كانوا يعملون لدى الرومي، على غرار قدور السـعدي المعروف باسـم الشـكّام، وهو في الحقيقة خال أبي وجدّ ابنيّ عمتي اللذين قتلا مناد، وكأن المشيئة قدّرت أن لا ينجب الكلب إلا كلابا، إلا أن خالي لم يشـتك أبدا من الوضع، فقـد كان رجـل ديـن وكرامـة، بل وكان يرى أن من يطلب شـيئا لأنه جاهـد فـي سـبيل أرضه، كان كمن يبيع دينـه بدنياه، وأن على الدولة أن لا تتكفل إلا بالأرامل وأبناء الشهداء إلى حين يشتغلون.

المهـم أننـي في أحد الأيام الصيفيـة الحارة، قبيل الغذاء بقليل، كنت جالسـا في الحوش لا أجد شـيئا ألهو به فيشـغلني، وكان خالي قد أحضر سردينا للغداء، والسردين في برج اخريص، في ذلك الزمن أو ربما في هذا الزمن أيضا، من الأكلات التي من شـأنها أن تجمع شـمل المتفرّقين، وتدخل السـعادة إلى قلوب الحزناء، لأنه كان نادرا أن تجـده إلا فـي البويـرة أو فـي الهاشـمية على أقصـى تقدير، لذلك فـكان الجميـع متلهفا علـى الغذاء، إلا أنا، الصبي الذي تملّكه الملل والسأم إلى درجة لا تطاق.

كنت حينها جالسـا لا أفكر في شـيء، هذا إن كان يمكن لطفل في العاشرة أن يفكر في شيء، وإذا بفكرة شيطانية تتملكني وأنا أشاهد قطا يقتات من بقايا السردين وفضلاته، أسرعت حينها إلى حيث كانت

facebook.com/the.Boooks

أمي تقلي السردين فسرقت واحدة وأمي تصرخ فيّ وتنعتني بأوصاف أحسنها "يا بغل"، ثم أخرجتُ علبة الخيط و أخذت منها إبرة خياطة صغيرة وجعلت فيها الخيط ثم وضعتها بجوف حبة السردين، فتدلى منها الخيط وربطته بشـدة إلى غصن شـجرة قريبة، فما هي إلا ثوانٍ حتى جذبت الرائحة القط وهم بأكل السردينة وأنا أنظر إليه في سعادة لا تضاهـى، ثـم مـا أن ابتلـع بعضها حتى أخذ يمـوء مواء كالصراخ، حتى خرج الجميع إلى الحوش، وقد صعقهم مشهد القط يتلوى من شـدة الألـم وقـد ظهر بعض الإبرة مـن عنقه بعد أن اخترقتها، فأجهز عليه خالي رحمة به».

لا أعرف فيم كانت سعادتي، ولكن الأمر مثلما أذكره اليوم كان ممتعا؛ لم أفكر أبدا في أن عملي ذاك قد يعتبره البعض سادية، فحتى السـاعة مـا زلـت حين أتذكر الأمر يتملّكنـي الضحك، بل وأحب أن أحكي هذه القصة في كل مناسبة.

facebook.com/the.Boooks

- 4 -

الجميع رحب بعمي احمد الصوري إلا إبراهيم باديبا، ليس لأنه لم يكن يعرفه بل لأمر آخر تماما.

لقد كان يعلم أن عمي احمد من شأنه إذا فضحه أن يجعل سمعته في الحضيض، ما قد يفقده كل هذا الاحترام الذي يكنه له المساجين، بعد ما حدث منذ سنوات حين دخل باديبا سجن الحراش لأول مرة في قضية تتعلق بالاحتيال، وأثناء محاكمته نزل في قاعة تحمل رقم A5، وهي واحدة من القاعات التي يلجها من يدخل السجن أول مرة، والغرض من ذلك أن يُنزل المسؤلون على السجن أكبر قدر من الرعب في نفوس المساجين الجدد، حتى إذا خرجوا منها، كرهوا السجن وأيامه، وفي اعتقادهم أن هذا يجعلهم يتوبون عن الإجرام توبة نصوحا، لذلك يعمد الحراس إلى تولية أكثر المساجين نذالة رئاسة القاعة، ويأمرونه بجعل حياة المساجين الجدد جحيما، أي أنهم يأمرونه أن يكون معهم على سجيّته، وهي القاعة التي رحلنا عنها أنا وفوزي قبل نقلنا إلى B6، وهي ذات القاعة التي عرفت أسطورة ابراهيم باديبا منذ سنوات، حيث دخلها وهو على غير الحالة التي هو عليها اليوم، فلم يكن وقتها يتكلم الدارجة ولا يحسن من الفرنسية إلا النزر القليل، كما لم يكن أعور بعين واحدة، دخلها بكامل عافيته وأناقته، حتى أن منظره كان يوحي بأنه يعمل في السلك الديبلوماسي، ولعل هذا ما ساعده على الاحتيال.

كان باديبا في بداية العقد الثالث، قدم من بلده ليحضر ديبلوم

facebook.com/the.Boooks

دراسـات عليـا فـي الفيزياء، في جامعة هـواري بومدين بباب الزوار، ثم سرعان ما أهمل دراسته وتخلّف عن دفعته بسنتين، ففقد المنحة التـي كانـت تسـاعده على العيش، فاضطر إلى التوقف عن الدراسـة، ورسم لنفسه هدفا جديدا وهو الهجرة إلى أوروبا، إلا أن ذلك يحتاج إلى الكثير من المال، خاصة ليحصل على جواز سفر مزور، بعد أن حجزت سـفارته جواز سـفره، فاتجه أول الأمر إلى العمل في مجال البنـاء، وكانـت بنيتـه تسـاعده علـى ذلـك، إلا أن أوضاعـه المالية لم تتحسن، إذ كان أصحاب المقاولات يستغلون أمثاله من الأفارقة، بل كانـوا يسـتعبدونهم بـأن جعلـوا أجرهم في المبيـت والأكل ليس إلاّ، وفي أحسـن الأحوال كان أجره لا يتعدى المائتي دينار يوميا، لذلك قرر إيجاد وسيلة أخرى للاسترزاق، فاحترف اللصوصية.

فـي تلـك الأثنـاء بدأ وباء الإرهاب ينتشـر في الجزائر، وكان ما يحدث من قتل وتقتيل أكثر ما يشغل رجال الأمن، فانتهز باديبا الفرصة، وكوَّن عصابة معظم أفرادها أفارقة، فكانوا أول من سطا ونهب الناس فـي ناحيـة بـاب زوار بمحاذاة الجسـر المعروف، وذلـك بعد أن بنى باديبـا لنفسـه وبنـى بقية عصابته مسـاكن قصديريـة يقيمون فيها كانت نواة ما يعرف اليوم بحي الجزيرة، وهو أكثر الأحياء العاصمية شهرة بالرذيلة وممارسة الدعارة، يقع في شمال حي الجرف، ومن الطرافة أنه يقابل محافظة شرطة!!

إلا أن باديبـا سـرعان مـا خـاف علـى نفسـه، بعـد أن بـدأ أفراد عصابته في السقوط واحدا تلو الآخر، فقرر التوقف عن أعمال النهب واللصوصية، واحترف الاحتيال لاحقا بعد أن عدل عن فكرة الهجرة إلى أوروبا، رغم أنه كان يملك من المال ما يمكِّنه من السـفر حتى

facebook.com/the.Boooks

إلى آخر الدنيا، فقد اكتشف أن مستقبلا أفضل ينتظره في الجزائر، وأنه لو أحسن التدبير، فسيعود إلى وطنه مليونيرا، إلا أنه سرعان ما انتهى به الأمر في القاعة رقم A5، وفي جيبه شبكة عنكبوت!!

وهناك حاول "البريفو" أن يجعل حياته جحيما، فهي أول زيارة له إلى السجن، فكان أحيانا يمنع عنه حصته من الأكل، وأحيانا كان يستعين بـ"الشاف كورفي" فيسخره كل يوم للعمل والتنظيف، وهو ما يعني أن يمنع عنه حقه في الخروج إلى الساحة، لأن المعمول به أن يتم تنظيف القاعات وقت خروج المساجين إلى الساحة، لذلك كان العمل في التنظيف دوريا يقسم بين المساجين جميعا، وقد يستثنى منهم كبار السن، أو من يحتمل أن يُقضى في شأنهم بعقوبة طويلة رحمة بهم، والذي يرفض العمل يتكفل بمعاقبته الآخرون، أما إذا كان ذا بأس وقوة يهابه الجميع، فيقوم البريفو بإخبار الحراس عنه فيعاقبونه بطريقتهم.

كل ذلك لم يجعل باديبا يخرج عن طوعه، وظل محافظا على رباطة جأشه حتى حين سرقت منه سجائره، رغم أنه كان ولا يزال مدمنا عليها، فلم يفعل أكثر من أنه اشتكى إلى البريفو الذي لم يفعل شيئا بطبيعة الحال، وهو ما جعله يفهم أخيرا أن لا أحد يعتني بأحد في السجن، وكان هذا أول دروس السجن.

قبل مغادرة باديبا القاعة، أصيب بإمساك شديد، وهو مرض عادة ما يصاب به المساجين الجدد بسبب تغير عاداتهم الغذائية، وكذلك بسبب الإحباط النفسي الذي يصيبهم إلى حين تعودهم على حياة الأبواب المغلقة، فكان يجهد نفسه في بيت الخلاء دون جدوى رغم رغبته الشديدة في التخلص مما فيه ورغم الأدوية التي حصل عليها من العيادة، وفي حالته تلك كان يصعب عليه النوم، أو كان ينام نوما

facebook.com/the.Boooks

متقطعا لا راحة فيه، وكان الذي يقطع نومه ما يشعر به من رغبة في التغوّط، إلا أنه كثيرا ما كان يعود خائبا إلى فراشه.

وحدث أنه في إحدى ليالي وعكته تلك، استيقظ راغبا في دخول بيت الخلاء، إلا أنه حين بلغ المغسل وجد الشاف كورفي يقف عند عتبته، فطلب منه العودة لاحقا، إلا أن رغبة باديبا كانت أكثر استعجالا من أن يؤجلها، فدخل المغسل رغم محاولة الشاف كورفي منعه، فصعقه حين دخل قمرة المرحاض مشهد البريفو وفي يده شفرة حلاقة يضعها في نحر شاب بالكاد بلغ العشرين، في حين كان سجين آخر يحاول أن يسحب منه سرواله، فكان من حسن حظ الشاب أن جاء باديبا قبل أن يبدأ البريفو وصاحبه في أي شيء، فلم يتمالك باديبا نفسه وخلص الشاب منهما، وكان يجدر به أن يخاف وهو واحد وهم ثلاثة، إلا أنه حين أمر الشاب بالانصراف، قال لهم بفرنسية ركيكة: " لم أر شيئا، وأنتم لم تكونوا هنا"، ثم سحب البريفو وصاحبه حتى أخرجهما من قمرة المرحاض ودخله.

قصة باديبا لم تنته عند هذا الحد، إذ إنه حين أيقن أنه سيترك القاعة، اندس ليلا إلى فراش البريفو وأخذ يضرب رأسه على الجدار حتى كاد يقتله، فكان من طول أجل البريفو أنه استطاع غرس شيء في عين باديبا ففقدها إلى الأبد.

انتشرت قصة إبراهيم باديبا، فزاد ما أقدم عليه انتقاما لشاب لا يعرفه من شعبيته ومن احترام المساجين له ورهبتهم منه.

إلا أنها قصة لا تخلو من خيال ومبالغة، ولعل فيها الكثير من الكذب، تكشَّف لعمي احمد الصوري الذي كان وحده يعرف القصة كاملة- أخبرني بها وأخذ مني الأيمان ألا أحكيها ما بقي هو على قيد الحياة- ما جعل إبراهيم باديبا يتوجس خيفة حين رآه يدخل القاعة

facebook.com/the.Boooks

رقـم B6، إلا أن باديبـا سـرعان ما اسـتدرك الأمر وقـام مرحبا بعمي احمد الصوري.

وكحالـة الجميـع كان قاديـرو أول المحتفين بقدوم عمي احمد، فعـرض عليـه أن ينضـم إلـى "قُرْبيـه"، والقربـي" مـن المصطلحـات الشـائعة الاسـتعمال بيـن المسـجونين، وتعني فـي الدارجة الكوخ أو البيـت القصديـري، أمـا في السـجن فتعنـي المكان الـذي يجتمع فيه المسـاجين الذين تربطهم علاقة ما، وغالبا ما تكون هذه العلاقة هي الانتماء إلى الحي ذاته أو إلى المنطقة نفسـها، والانتماء إلى "قربي" مـا، لا يعنـي الانتمـاء المكانـي بقـدر مـا يعنـي أن يصبـح أصحـاب القربي عصابة واحدة، يتقاسمون المر والحلو، لذلك ما أن كان يلج أحدهم القاعة، حتى يتهافت عليه المسجونون، يسألونه عن كل شيء، وبحسب أجوبته يتقرر القربي الذي سينتمي إليها، فإذا تقرر انضمامه إلى أي واحد من القرابى، يفسح له مكان بين الجماعة ليفترشه.

السجين الذي ينتمي إلى قربي ما، يكون قد أعلن ولاءه وتحالفه مع أصحاب القربي، ومثل هذا التحالف يجعل السجين في منأى عن كل خطر.

عـاد قاديـرو وعلى وجهه ابتسـامة تكاد تقسـم وجهـه، فقد قبل عمـي احمـد عرضـه، ما يعني أن قربـي قاديرو لن يكون أكثر القرابي مهابة فحسب، بل وأكثرها احتراما وتقديرا أيضا.

التحـاق عمـي احمـد بنـا جعلني أولي اهتماما أكبـر به، وأغلب الظن أنني اعتبرت ذلك فرصة لأستجلي ما جعل الرجل يشد انتباهي، وهـو مـا حاولـت معرفته بإثارة أكثـر من موضوع معه، حتى كدت لا أفارقه، فظهر لي أنه رجل حسن الثقافة والاطلاع دون أن يفتري على ما يعرفه بما لا يعرفه، وكان فيما أذكر قليل الكلام، فلا يتحدث إلا إذا

facebook.com/the.Boooks

خوطب أو سئل، ولعل هذا ما جعلني أحب مرافقته، إلا أنه كان شديد التضايق بي، ورغم أنه لم يفصح عن شعوره هذا، إلا أن معاملته لي كانت في مجملها تقول "دعني وشأني".

كان عمي احمد في معظم الوقت مشتغلا على مصحفه أو جالسا يدخن سيجارة بنهم كبير، ورغم ذلك لم يكن يدخن إلا في أوقات معينة، على خلافنا نحن الشباب، فكنا كثيري الحديث والتدخين بغير طائل، حتى أنا أدمنت الكلام على غير عادتي وعذري أني كنت جاهلا بنظام السجن وعالم المساجين، وأغلب ظني أن معرفتي هذه دفعت عني ما لم أكن قادرا على رده دونها، كل ذلك من غير أن أجرؤ على مخالطة من لم يكونوا من قربي قاديرو، ليس خوفا من أحدهم ـ فلم يكن الخوف ليطل من نافذتي ـ إنما لاعتقادي أن لا فائدة ترجى من مصاحبتهم، ولإيماني المطلق باقتراب موعد إطلاق سراحي.

كان إيماني باقتراب موعد إطلاق سراحي لا علاقة له بالجلسة الأولى من محاكمتي، كان شيئا بداخلي كاليقين، ومثلما لا يمكن تعريف البديهية فليس بمقدوري أن أشرح هذا الشعور، تماما كما لم يكن بمقدوري أن أشرح سبب انجذابي نحو أمال زوجتي منذ أول يوم رأيتها فيه حتى هذه اللحظة..

ما زلت أذكر ذلك اليوم بالتفصيل. كان يوما خريفيا أطل عليه الصيف على حين غرّة، فخرجتُ فيه هائما على وجهي، لا غاية لي إلا أن أقضيه كما أحب، إلا أنني سرعان ما استدرجني الملل حتى قررت العودة إلى القليعة ولكن عن طريق البليدة إجهازا على النهار، فظهر لي أن الرحلة ستكون أفضل إذا ركبت القطار، فقصدت محطة آغا وهناك لمحتها، كانت جالسة بمفردها تنظر في أوراق تبين لي

facebook.com/the.Boooks

أنها أوراق امتحان، فوجدتها فرصة للتودد إليها، وكنت ساعتها دون صاحبة منذ أكثر من شهرين، فاستثارني جسدها النحيل الممتلىء، حتى لم يعد للعقل حكم عليّ.

جلست بقربها، ملقيا عليها السلام، فلم ترد، فعرفت أنه تمنُّعٌ ليس إلا، ثم نظرت في أوراقها وبادرتها بالحديث:

- لم تعد الامتحانات بنفس الصعوبة، فهذا موضوع لا يستحق حتى التفكير فيه.

قلت ذلك باستعلاء حتى أغيظها، وبذلك أدفعها دفعا إلى الردّ عليّ، فالمرأة مهما كانت، تمقت من يستحقر ذكاءها أو يستصغر همتها، إلا إذا وقعت في الحب، فقد تقبل بذلك مقابل ما يمنحه الحب من رضا، أما إذا صدر ذلك عن غريب فهي تستهجنه، وغالبا ما يستنفرها ذلك فترد على من استفزها بما يفحمه، أو تتجاهله وهذا أعظم عقاب، وهو أمر كنت سأقبل به، ومخاطرة مقبولة لكل من يعرف في عالم الرجال بـ"زير نساء"، والأكيد أني كنت كذلك بامتياز، فمنذ أن عرّفتني الطبيعة على ذكورتي، لم أبذل جهدا لأمنع نفسي من النساء حتى لا أكاد اليوم أذكر معظمهن.

غير أن هذا لا يعني أنني كنت عارفا بالنساء، فمثل أي زير نساء لم أكن مهتما بغير الجنس دون أن أهتم بهن فعلا، فما أن أنتهي من واحدة حتى أنتقل إلى الأخرى، وكأنهن لا يصلحن إلا للمضاجعة، آلات جنس لا غير.

حين أفكر في الأمر، أراني حقيرا عديم الرجولة، مجرد بهيمة تدّعي انتسابها للإنسان، بل وأحيانا أخلص إلى أن محنة سجني لم تكن إلا عقابا إلهيا عن جرائمي في حق كل اللائي عرفنني ولو بالاسم، ولكنني حين أتذكر أمال أدرك أن ما خلصت إليه مجرد

facebook.com/the.Boooks

هواجس رجل نادم، فمن أراد أن يعاقبه الله لا يجازيه بملاك لا يزال محتفظا بجناحيه.

نجحت خطة استفزازي لها، فرمقتني بنظرة جانبية من تحت إلى فوق دون أن تنظر في وجهي، والحقيقة أن لاشيء كان يدعوها إلى النظر إليّ، فلم أكن ساعتها في أبهى حللي، ولا حتى قابلا لأن ينظر إليّ، والحق أنني كنت أشبه بمتشرد خرج للتو من صندوق قمامة.

كنت عادة حين تتجاهلني واحدة، لا أنزعج ولا أحاول معها مرة أخرى، لا أنزعج لأن احتمال نفورها مني كان دائما أكبر من احتمال انجذابها إلي، ولا أحاول مرة أخرى لأنني كنت أعتبر الإلحاح على أي فتاة لا يعدو أن يكون تحرشا لا يليق بمثلي، وهذا بعض من غرور زير النساء.

غير أنني هذه المرة أقدمت على خطوة ثانية دون أن أحتفي بقواعد المعاكسة، وهدفي هذه المرة أن أبهرها بسعة معارفي وثقافتي الواسعة، فقد كنت ولا زلت رجلا مدمنا على القراءة إدمانا مرضيا يكاد يمنعني أن أحيا حياة طبيعية، أقرأ أي شيء ليس حبا لمضامين قراءاتي، بل إدمانا على القراءة بحد ذاتها، ولعل هذا ما ينفِّر أرباب عملي مني، رغم ما أنا عليه من كفاءة تجعل أكثر زملائي خبرة يتضايقون مني خوفا على وظائفهم، غير أن الكفاءة لا تغني عن الجدية في شيء.

وحين أقول أقرأ أي شيء، فأنا أعني ما أقول، حتى كتيّبات " طريقة الاستعمال" كانت لا تفلت من نطاق اهتمامي، ولعل هذا ما جعلني أتقن خمس لغات، دون أن أدرسها حقا، وهو ما جعلني أيضا لا أعير اهتماما إلى هندامي، لأن معظم أجري كنت أنفقه على الكتب، ومازلت كذلك حتى تزوجت أمال، فعالجتني بطريقتها، إذ

facebook.com/the.Boooks

جعلتني أقتني جهاز كمبيوتر وجهازا آخر لالتقاط الانترنيت فأصبحت أحمِّل الكتب، وكل ما أرغب في قراءته.

المهم أنني حاولت مرة أخرى:

– الكثير يعتقد أن القانون الإداري أيسر من غيره، إلا أنه على العكس تماما، مثلا أنظري إلى امتحانك هذا، فهو يتحدث عن بلدية قامت بهدم منزل أحدهم، كان قد شيّده على أرض أجَّرتها له، فأي طالب يُعمل المعيارين المادي أو الموضوعي، فسينتهي إلى أن هذا عمل من أعمال الإدارة، وبالتالي ستكون المحاكم الإدارية هي صاحبة الاختصاص، ولكن هذه النتيجة رغم مقدماتها المنطقية والمنهجية خاطئة، لأن عمل الإدارة هنا كان عملا ماديا، وهو ما يجعل القضاء المتخصص هو القضاء المدني، أما المحامي المحترف فسيحاول الاقتصاص لموكله بإتباع أيسر وأقصر السبل، فعلى سبيل المثال إذا كان القضاء الإداري أيسر السبل فعليه الطعن ليس في عملية الهدم بحد ذاتها، إنما الطعن في القرار الذي يسَّر هذا الهدم، لأنه إذا طعن في الهدم أمام القضاء الإداري وقع في ما يعرف في القانون بعدم الاختصاص، أما إذا تبين له أن القضاء المدني أيسر السبل فعليه أن يطعن في عملية الهدم أمام القضاء المدني.

ما أن أنهيت محاضرتي حتى تحولت نظرات الاستحقار التي رمقتني بها للتو إلى نظرات احترام، لم أعد ذلك الشاب الأشعث، سيء الحلاقة ذي الرائحة المقرفة، تحولت إلى أستاذ محترم لا يصلح فيه الذم، وكان هذا ما أردت بلوغه منها، فبدأنا في حديث جاد ممل حتى أجهدنا الحديث، كل ذلك دون أن أستطيع خلع ثوب الرجل الجاد الذي ارتديته وكاد يصبح منّي كالجلد.

وبينما نحن كذلك وصل القطار المتوجه إلى الثنية، فتوقفت

facebook.com/the.Boooks

أمال عن الحديث لحظة ثم علَّقت:

- آسفة، وصل قطاري

- وإلى أين؟

قالت ببراءة:

- إلى بودواو

- إذا سنستقل نفس القطار

وصعدنـا معـا، ثم أشـرت إليها أن تقف فـي مكان بين قاطرتين فامتثلت ولم تمتنع، ووقفت برفقتي

- إذا تسكنين في بودواو

- نعم، وقبل ذلك في الدار البيضاء، انتقلنا منذ شهر تقريبا

ثم بادرتني بالسؤال:

- وأنت؟

- لا، أنا من الحراش

- إذا ستنزل في الحراش؟

- نعم ولكن إذا شئت أصحبك إلى بودواو ثم أعود

توقفـت فجـأة عـن الـكلام، وحيـن كنـت أفكر في شـيء أقوله فاجأتني بطلبها:

- من الأفضل أن تقف في مكان آخر

- أإلى هذا الحد يحرجك وقوفي معك؟

أجابتني بحزم:

- نعم، كثيرا

- ألهذا الحد أبدو مقرفا؟!

ابتسمت وقالت محاولة شرح موقفها:

facebook.com/the.Boooks

- ليس هذا ما قصدت، أخشى أن يراني أحد واقفة برفقتك
- وماذا بعد؟
- أنت تفهم بالتأكيد
- لا، فأكثر ما يعيبني أنني رجل ثقيل الفهم
- لا يبدو عليك ذلك
- وكيف أبدو؟
- ذكيا
- ذكيا؟!
- بعض الشيء
- هذا أفضل، وبعد؟
- لا شيء آخر، فقط حاول أن تقف في مكان آخر
- ولماذا لا أشعر أنك ترغبين في ذلك حقا؟
- هذا شأنك.
- لكن عندي لك سؤال.
- أرجوك، حاول أن تفهم..

قاطعتها:

- سأقف في مكان آخر، بشرط أن تجيبي أولا عن سؤالي.
- حاضر وحين أجيبك تغير المكان.
- ماذا يفعل شاب مثلي يرغب في التعرف إلى شابة مثلك؟
- لاشيء بالتحديد.
- ولِمَ؟
- لأن شابة مثلي لن ترغب أبدا في التعرف على من هو مثلك.

facebook.com/the.Boooks

قالت ذلك وابتسمت.

كانـت ابتسـامة تدعوني إلى الاسـتمرار والمحاولـة، لا أعلم ما الذي جعلني متيقنا من ذلك، وبالأخص أن إجابتها نمَّت عن كثير من الاحتقار، ولكنني كنت، لسبب ما، واثقا من نجاحي في استمالتها.

- والآن بعد أن أجبتك، هل تتفضل بالابتعاد؟

قالـت ذلـك بصرامـة وحـزم، وكأنهـا لـم تكن نفس الفتـاة التي ابتسمت لي منذ حين.

للحظـة توقفـت عـن المحاولة وانصرفت مبتعدا عنها، فقد لفَّني شعور رهيب بالانكسار.

ثـم مـا لبثـت فكـرة يائسـة أن تشـبثت بجلبـاب آخر قطـرة أمل لاسـتمالتها، فوجدتنـي مـن جديـد واقفا أمامها، وقبـل أن تفكر حتَّى فيما ستقوله باغتُّها:

- أريدك أن تحفظي رقم هاتفي....

ثم انصرفت دون أن أسمع جوابا، ومن حسن حظي أنها كانت سـريعة الحفـظ، فأحيانـا تولـد أصـدق لحظـات الأمـل حيـن ينقطع الرجاء.

اليقيـن الـذي صنـع الفـارق مـع زوجتي، هو ذاتـه الذي جعلني أومن باقتراب سـاعة حريتي، مع فارق أنّني تركت هذه المرة هامشـا للخيبة، ولكنني ضيَّقته حتى أصبح مهملا، ومع ذلك لم أكن لأجعل مصيـري بيـن يـدي قـاضٍ صـارم كالسـوفي ومحامٍ أكثر مـا يهمه في قضيتـي مقـدار مـا يملأ به رصيده، لذلك أرسـلت إلى صديقة قديمة تعمل في مجال القانون، كنت قد اسـتعنت بها فيما سـبق في قضية حمامة، ومجال عمل صديقتي هو العلاقات العامة، بمعنى أنها تعرف

facebook.com/the.Boooks

كل السبل المؤدية إلى قلوب القضاة، ومع ما يتقاضونه من أجر كان ملء جيوبهم أقصر هذه السبل وأكثرها مدعاة إلى الرحمة من القانون بحد ذاته، ولولا صديقتي هذه لقضت حمامة أزيد من خمس سنوات في السجن، لهذا لجأت إليها هذه المرة أيضا.

هامـش الخيبـة الـذي وضعته في خططـي، كان بهدف أن أكون مستعدا لأي طارئ، فللحياة أيضا مقالبها، لذلك طلبت من صديقتي أن تسعى جاهدة إذا قدر الله وبقيت في السجن أن توظف علاقاتها لأحصل على معاملة جيدة من الحراس، وكان هذا أقصى ما تستطيعه داخل هذا المكان القذر.

facebook.com/the.Boooks

- 5 -

كنت في الساحة حين قام أحدهم بالمناداة عليَّ.

تقدمتُ إلى باب الساحة، وهو باب حديدي بقفلين من الخارج، يعلـوه فتحـة بحجـم الرأس تسـمح للحراس بمراقبـة ما يجري داخل الساحة، وتسمح للمساجين برؤية ما يحدث في الخارج، ومن خلالها أيضا يقوم العمال بالمناداة أو بتسليم بعض الوثائق، وأحيانا في غياب الرقيب تصبح هذه النافذة معبرا لبعض السلع خاصة التبغ.

قال لي السـجين العامل إن لديَّ زيارة، ثم سـلَّمني ورقة عليها معلومـات عـن الزائريـن، حملت هذه المرة اسـم والدتـي وزوجتي، وهي ورقة تسمح لحاملها بالتجوال خارجا مع بعض الحرية.

كان عمـي احمـد الصوري وقاديرو واقفين أمام الباب، شـأنهما فـي ذلـك شـأن الكثيريـن ممن يحبـون الوقوف هنـاك، إلا أن وقوف قاديرو وعمي احمد لم يكن لنفس غاية هؤلاء، حيث كانوا يسـعون مـن وقوفهـم هنـاك إلى اسـتعطاف المارين بالسـاحة من مسـاجين و عمال وربما الحراس أيضا، للحصول على بعض التبغ: سـجائر كان أو شمة، في حين كان وقوف صاحبيّ لـ لاشيء، فلم يكونا على حد علمي في حاجة إلى استعطاف.

بقدر ما أسـعدتني زيارة أمي وأمال، بقدر ما اسـتأت من ذلك،

facebook.com/the.Boooks

فالسجن لا ينال من كرامة المساجين مثلما يفعل بكرامة أهلهم، وحسبي أنني أعرف ما يتجرعه الزائر من إهانة أيام كنت أزور حمامة، فقد كان الحراس أحيانا يجبرون الزائرين على الانتظار لساعات من أجل دقائق معدودة مع من يزورنهم، وكانت لا تمر زيارة إلا ويسمع فيها الزائر من الكلام البذيء ما يخجل أن يسمعه وهو بمفرده.

غير أن سعادتي بقدوم أمي وأمال، لم تستطع أن تجعلني أتجاهل نظرات عمي أحمد الصوري وهو يضع يده على كتفي بعد أن استوقفني عند الباب، فلولا معرفتي ببرودة دمه ومشاعره، لقلت إنها نظرات فيها الكثير من العطف، أو شيئ قريب من هذا، فالعطف وصف لا يصلح لمن وجد القوه لقتل فلذة كبده حتى وإن كانت أكبر العاهرات.

أقول هذا لأنني في قرارة نفسي كنت رغم اهتمامي به أحتقر هذا الرجل الذي يحبه الجميع هنا، فقد كنت أرى أن هدوءه وطيبته وحتى حديثه المنمَّق المحسوب بالقطرات، مجرد ثوب يرتديه لغاية ما، ثم ما معنى أن يحبك الجميع، إلا إذا كان منافقا يُظهر لكل واحد ما يحب أن يراه فيه.

المهم أن عمي احمد الصوري، رمقني بنظرات غريبة لم أرها في عينيه من قبل.

وحين هممت بالعودة إلى وسط الساحة استوقفني، بأن شدني من معصمي، ثم لف ذراعه حول كتفي، وفي فمه كلمات تشبثت بلسانه فلم ترد الخروج، أو لعلها لم تستطع، فسادت بيننا لحظة صمت لم يستطع قطعها إلا قاديرو بسؤاله:

facebook.com/the.Boooks

- إذن جاء الأحبة لزيارتك..

- أمي وزوجتي، ولكن تمنّيت لو لم تحضرا.

- ولِمَ؟، على الأقل ستعرف أخبار الدار.

- وما جدوى ذلك وأنا هنا، لا أستطيع فعل شيء.

- بل تستطيع الكثير.

قال عمي أحمد الصوري بعد أن وجدها فرصة لقتل ذكرى ما حدث منذ حين.

ثم سحب ذراعه من على كتفي واستعاد نظرته الباردة، إلا أنه بدا جادا في حديثه معي، وكأنه مهتم بزيارة أهلي:

- يمكنك مثلا أن تجعلهم لا يقلقون، قل لهم إنك بخير وأنك تأكل وتنام جيدا.

ضحكت وضحك قاديرو معي، وكأنّنا اتفقنا على ذلك مسبقا.

- تقصد بالطبع أكل الكلاب والنوم في وادي القاعة مع أشخاص أكثرهم نظافة لم يستحمَّ منذ أشهر، ربما سأقول لهم أيضا إنّني مع رجال محترمين لا نفعل شيئا إلا تعاطي أخبار المال والسياسة.

كان من الواضح أنني فقدت أعصابي، وكانت أول وآخر مرة لي أكلم فيها أحدا بهذه الطريقة، وأكثر ما كنت أخشاه بعدها أن يأخذ قاديرو كلامي على محمل الجد ويعتبره إهانة له، لكنه على غير عادته لم يفعل شيئا، وكأنه تفهّم ما أعيشه من ضغط،

فقال مهدئا:

- غدا إن شاء الله ستخرج من هنا وستنسى كل شيء، فلست وجه حبس.

facebook.com/the.Boooks

ثم انصرف بعد أن ربَّت على كتفي

في حين ظل عمي أحمد واقفا ينظر إليّ وكان قد استعاد نظراته "العطوفة".

- اسمع يا بني، عليك فقط أن لا تقلق أهلك بتفاصيل السجن، لا أطلب منك أن تكذب ولكن حاول أن لا تقول لهم كل شيء... اذهب الآن لا تجعلهم ينتظرون.

كان هذا ألطف ما خرج من فم هذا الشيخ، ولعل هذا كان ألطف ما قاله يوما.

وجدت أمي وأمال واقفتان متلهفتان للحديث معي، كانتا خلف الزجاج الفاصل بين جهتي الزوار والمساجين، وفي سجن الحراش عدة قاعات تستعمل للزيارة، تعارف المساجين على تسميتها باسم " البارلوار" وهي كلمة فرنسيةparloir، ومعناها المكان المخصص للكلام أو قاعة الاستقبال، وهي في معظمها بطول سبعة أمتار على ثلاثة تزيد أو تنقص بقليل، وجميعها مقسمة بزجاج من الجاموس الشفاف بثقوب أو بغيرها، يستقر الزجاج على جدار من الخرسانة بارتفاع متر أو أكثر بسنتيمترات، وعلى طول الزجاج عوازل إسمنتية ثبتت عليها هواتف داخلية من الجانبيين، وعبرها يتحدث الزائر مع المسجون.

بجانب القاعة مستودع بشباك واحد، منه يحصل السجين على قفته التي أحضرها الزائر، يعمل فيها مساجين يرتدون مآزر بيضاء تحت إشراف حارسين أو ثلاثة، وعمل المساجين داخل الشباك هو تفتيش القفف واحدة تلو الأخرى، وهذا خوفا من دخول المواد المحظورة إلى السجن على غرار الزطلة والأقراص المهلوسة، وكانت

facebook.com/the.Boooks

عـادة توضـع فـي الأكل الذي يطلق عليه المسـاجين اسـم المرهوجة وللتعرف على صاحب القفة تؤشـر برقم السـجين الذي يقدم له عند دخوله.

فـي الأخيـر فعلـت مـا أوصاني به عمي أحمد، قلـت لهما إنني بخير، وأن محاميَّ وصديقتي القانونية يقولان إنني سأقضي ليلة الغد خارجـا، والحقيقـة أننـي انزعجت لاضطـراري إلى الكـذب عليهما، فالكذب بالنسـبة إلي ليس عدم قول الحقيقة فحسـب، هو أيضا قول الحقيقة بشكل آخر.

حين خرجت من البارلوار، كان وقت الساحة قد انتهى، فأخذت قفتي واتجهت مباشـرة إلى القاعة، وضعتها في قربي قاديرو بعد أن أخذت منها علبتي سـجائر واحدة لنفسـي والأخرى أعطيتها لقاديرو تسـديدا لديـن لـه علـيّ، ثم جلسـت وأنا أفكر في حديـث أمي، فقد وجدتها غريبة نوعا ما، فعوض أن تسألني عن صحتي وأحوالي كانت مهتمة أكثر بمن أقابل وبمن أصاحب في السجن، ولكنني بعد تفكير عذرتها فهي أمّ تخاف على آخر ولد لديها يعيلها.

في القربي كان عمي أحمد الصوري ممددا على جانبه كعادته، ينظر في مصحف صغير، أما قاديرو فكان مهتما بما في قفتي، يحاول ترتيبها وتقسيمها على عشاء اليوم وغذاء الغد، فكما قلت الانتماء إلى القربي يعني أيضا تقاسم كل شيء عدا السجائر وأكياس التبغ.

حينذاك قال قاديرو بنبرة طفل سعيد بلعبته الجديدة:

"-راهم تهالاو فيك" هذه المرة.

وقال عمي أحمد موجها كلامه إليّ:

- المهم أنك وجدتهم بخير.

facebook.com/the.Boooks

- نعم بألف خير.

فقال قاديرو:

- علام أنت مغتم إذن؟.

- لم أر اليوم فوزي في الساحة.

- سمعت أمرا ما..

سأل قاديرو بعد أن توقف عن ترتيب ما في القفة:

- أي شيء؟

- ربّي الدايم في صاحبك.

- ماذا تعني بالضبط؟

قلت ذلك وكأن هذه العبارة لم تعن لي شيئا، رغم ما تعنيه عادة.

- أخبرني باديبا أن بريفو القاعة A6 أخبره أحد الموقوفين توفي أمس بأزمة ربو حادة.

قلت:

- ربما لم يكن فوزي، فقد يكون شخصا آخر.

- لا، لقد كان فوزي، أقصد الشاب الذي جاء معك ورحل في اليوم الموالي.

خبر وفاة فوزي لم يثر فيّ أي شيء، ربما أكون جفلت للحظة أو لحظتين ولكن لا شيء أكثر، فلم تعد أخبار الموت تؤَثِّر فيّ كما كانت سابقا، ربما لأنني فهمت أخيرا حقيقة الموت، إنه جزء من الحياة لا غير، لكنني بالمقابل كنت سعيدا من أجل فوزي، فأخيرا استراح من عاهرته وطمعها، أتخيله الآن ينظر إليها من السماء يسخر منها وهي تظن أنها قضت عليه، في حين قضى هو على أحلامها في

facebook.com/the.Boooks

المزيد من المال، ربما كانت هذه طريقة السماء في تحقيق عدالتها.

ورغـم أن خبـر وفـاة فـوزي لـم يكن يهـم أحدا غيـري، إلا أن صمـت عمـي أحمـد وانقطاع قاديرو عن الـكلام، أضفى على القعدة جوا شبيها بجو اللقاءات الجنائزية، ولكنه أقل سوداوية ونفاقا.

لاحظت أمرا غريبا في عمي احمد الصوري، وكأن شيئا أحدث انقلابا رهيبا في طبعه، لم يعد ذلك الصامت الصائم عن كل حديث، أصبح يتحين الفرص للحديث معي، وكان في كل مرة يسألني رأيي، وكأن رأيي يهمه في شـيء، إلا أنني كنت مرتابا في الأمر، لمعرفتي أن الطبيعـة البشـرية لا يمكـن أن تتحـول أو تتأثر إلا لأسـباب معينة، وعادة لا يحدث ذلك بين طرفة وطرفة.

ورغـم ارتيابـي من أمره، فقد كنت سـعيدا بمـا آلت إليه الأمور بينـي وبيـن عمـي احمد، ربمـا لأنني أردت أن أعرف قبل رحيلي من هنا سبب انجذابي إليه واحتقاري له في نفس الوقت، وجاءت الفرصة المواتية، ليس لأنني حضَّرت لها، بل لأن عمي احمد بدأ حديثا ربما أتمنـى الآن لـو لـم يبـدأ فيه، ولكن علي أن أعتـرف أن هذا ما جعل حملي الذي دام أكثر من ثلاثين عاما يخف إلى الأبد.

لقـد كان كلامنـا لحظتهـا نهاية لقصة امرأة عجوز جعلت حياتي وحياة أمي تدور حول فلكها، في محاولة لفهم شيفرات القدر الذي شـاءت تفاصيلـه أن تتطابـق مـع ما اعتبرناه نبوءة، ومـا اعتبرته الحياة مجرد أحداث بدأت منفصلة وانتهت إلى قعدة بين شـيخ وشـاب في صالـة داخـل سـجن الحـراش، أين سـتتعرى الحقيقة أخيـرا، لترتدي مـا سـأخيطه لهـا فـي أيام لاحقة، حيـن تصبح رغبتي في الاسـتمرار معلقـة بمـا يمكننـي فهمـه مـن كل ما حـدث لي منذ ثلاثيـن عاما أو منذ أصبحتُ النبي الحامل رسـالة الحقيقة، حقيقتي التي قد لا تعني

facebook.com/the.Boooks

سواي ولكنها حين تكشُّفِها عَنَت الكثير لغيري، لإخوتي، لأمي، أبي وحتى الذين قابلتهم بالمصادفة ليكونوا حلقة في سلسلة أحداث كثيرة وغريبة، قادتني جميعها إلى هنا، إلى حيث هذا الشيخ الذي جالسني وقرر لسبب ما أن يحادثني:

- سمعتهم في الساحة وهم ينادونك باسمك كاملا.

- وماذا بعد

- لقبك، " تردد" كنت أعرف رجلا بهذا اللقب

ابتسمت وقد هالني تردده

- لقبي من الألقاب كثيرة الاستعمال في كل الوطن، فلا غرابة في الموضوع

صمت للحظة وهو ينظر في الأرض، ثم قال:

- ربما، ربما، أقصد أنني قد أكون على معرفة بأبيك.

- أبي؟!

- نعم أبوك.

- لا أظن، أحسب أن الأمر تشابه عليك. فكثيرة هي الأسماء المتشابهة

- اسمه بلقاسم، أليس كذلك؟

- بلى هكذا كان اسمه.

- تقول كان..

- نعم، فقد توفي وأنا في الرابعة من عمري.

- فأنت لا تتذكر شكله بالتأكيد.

- في رأسي ما يمنعني من ذلك، فكلما حاولت،، أكاد أجزم أنني أراه ولكن دون أن أراه حقيقة.

facebook.com/the.Boooks

- ماذا تقصد؟

- أشعر أنني أعرف وجهه، ولكنني لا أستطيع أن أحدد ملامحه بدقة.

- هذا لأنك كنت في الرابعة عندما رحل.

- نعم ربما، ولكن هناك أمر آخر.

- أي أمر؟

- لست أعرف، هو شعور يتملكني بين الحين والآخر.

- لا أفهم..

- أحيانا أشعر أنه السبب في كل ما حدث لنا، لجميعنا.

- تقصد إخوتك.

- نعم وأمي وجدتي أيضا.

-ماذا تعني، ألم تقل أنه ميت، فكيف يكون السبب في سجنك مثلا؟

- لا أعلم

- طيب." قال ليعود الى موضوعه من جديد". كنت أقول لك أنني أعرف أباك، صمت قليلا:

- كنت على صداقة به.

- قلت لك أن هذا مستحيل.

- ولم؟

- لا أدري، ولكن..

- قلها، لست من النوع الذي يصادقه أبوك.

- ليس هذا، ولكنني لا أستطيع أن أتصوره واحدا من أصدقائك.

facebook.com/the.Boooks

- ولكنه كان صديقا لي.

حيـن رأيـت إصـراره، فضلت أن أسـايره خوفا على نفسـي من غضبه:

- ربمـا، ولكنهـا غالبـا صداقة كانت قبل أن تصبح على ما أنت عليه.

- قبل أن أصبح قاتلا..

- نعم، أعذرني ولكنني لا أتصور أبي يصاحب رجلا يقتل ابنته في الظلام.

- أنت لا تعرف شيئا عني.

- ربما، ولكن ذلك يكفي لأكوّن رأيا عنك.

- أي رأي؟

- لا أحب أن أقوله، ولكنك تفهم قصدي.

- أنني أستحق ما حصل ويحصل لي.

- بالضبط..

- قلت لك لا تعرف شيئا عني.

- ولا أريد أن أعرف عنك شيئا.

- بالطبع، بالطبع..

بدا متأثرا، فتوقف عن الكلام، حينها ركبني الشعور بالندم على فظاظتي، فقد كان يمكن أن أقول ذلك بشيء من اللباقة، أو كان يمكن أن لا أقوله أصلا، كأن أدعي أن حديثه يهمني وأقبل في ظاهري أن يكـون صديقـا لأبـي، ولكنني لم أفعل ذلك حبا في هذا الذي أذكره،

facebook.com/the.Boooks

قويا في أحلك لحظات حياته، في أكثرها سوداوية.

لم أكن أحب أن تتسخ هذه الصورة بعلاقة يدعي هذا المخبول القاتل أنها ربطته بأبي.

وكأنه عاد من سحيق، استوى عمي احمد الصوري في مكانه، بعد أن أعاد لوجهه ملامحه الصارمة، ولكنه في ذات الوقت ترك نظرات اللطف تزين محياه، فكانت تضفي على وجهه ما تضفيه التوابل الهندية الجيدة من طعم على طعام لا يحمل إلا اسم الطعام.

قال عمي احمد الصوري:

- إذا كيف عرفت اسم أبيك

- غالبا من أحد الحراس، فأنت أقدم في هذا السجن حتى من السجن

حاول أن يضحك، لكن شيئا منعه

- وأمك اسمها لويزة وتلقب بالهواوية، لأنها في صغرها، كانت تحب مجالسة أصحاب الريح والجذبة والرقص معهم حتى يغمى عليها، ولك من الإخوة ثمانية أنت تاسعهم وآخرهم،.

لا عشرة ماتت الطفلة العاشرة في شهرها الخامس، وجدتك من أمك تسمى عائشة، وكنت تحب أن تسميها مّا عيشة و..

واستمر عمي احمد الصوري في سرد تاريخي العائلي، لم يترك واحدا من إخوتي ولا من أبناء عمومتي إلا وذكره ووصفه، وكنت حينها مندهشا، صامتا، ليس بيني وبين ما يحدث إلا سؤال أوقفته الدهشة على عتبة اللسان:

- كيف تعرف كل ذلك؟

facebook.com/the.Boooks

سؤال غريب غرابة اللحظة التي كنت فيها، أستجدي الله في سري أن يتوقف، لكنه استمر في سرد قصة حسبتني الوحيد الذي يحفظها، قصة ميلادي وما فيها من أحاديث وأساطير، أصبحت على لسانه قصة يمكن أن تصدَّق، ربما كان ذلك بسبب ما استشعرته فيه من إيمان بما كان على لسان يما عيشة مجرد أخبار من المخيلة، أوهام تحولت مع الوقت إلى أساطير ترقد معي كل ليلة يتملكني الأرق فيها، ولكن أحداثها فيما يحكيه عمي احمد الصوري تتوقف مع آخر مشهد يظهر فيه أبي عام 1978، حين كنت في الرابعة من العمر.

- حتى حكاية العجوز التي طرقت بابكم أعرفها.

- يا ألله تعرف هذه أيضا.

- قالت لأمك شيئا من هذا: "في ولادك تسعة، الذكور فيهم ربعة: واحد ظالم ولاخر عالم، واحد اعمى ولاخر يرفدو الما."، كانت أمك مهووسة بها، حتى كاد يجن أبوك من كثرة ما رددتها على مسامعه، كانت تؤمن بها، أقصد أنها كانت تؤمن بحدوثها أيضا.

- أنا أيضا آمنت بها، أو على الأقل حاولت أن أكون مثل أم.

- ولكنها مجرد خزعبلات، تنجيم كاذبة.

-لا، تحققت كل النبوءة إلا آخر حلقاتها.

- كيف ذلك، لا يمكن أن يحدث مثل هذا، أنت رجل متعلم.

ربما، ولكنها لم تكن مشعوذة، كانت ولية صالحة.

- سبحان الله، حسبتك رجلا دخل الجامعة.

- لأنني دخلتها أقول ذلك.

facebook.com/the.Boooks

- هذه أمك، أمك من جعلك تفكر هكذا..

قال ذلك بنبرة فيها الكثير من الحقد، أعتقد أنه كان حقدا، لطالما عرفت هذا الشعور، لم يكن شعورا ضد أحد ما بالضرورة، كان ضد كل شيء دون أن يكون شيئا.

- لم تكن أمي من جعلني أومن بالنبوءة، الحياة تكفلت بذلك..

ورحت أقص عليه ما حدث بالتفصيل الممل، في حين كان عمي احمد يصغي إلي بعينين اغرورقتا دمعا.

لم يكن حزينا فحسب، بدا غاية في التعاسة، ربما لأنه لم يتصور أن أشياء كهذه يمكن أن تحدث لعائلة صديقه."صديقه"، أيمكن أن يكون هذا صديقا لأبي؟،.ربما..لم لا؟.. ألم يكن قبل أن يقتل ابنته مثل أي أب آخر، كأي رجل نصادفه في الشارع، في المقهى،.في أي مكان، ما الذي يجعل القاتل قاتلا، ما الذي يجعل المجرم مجرما، أي شيء، حدث يحدث، مجموعة من الأحداث تتكون في رحم الزمن الكلب، لتتقاطع في لحظة أخرى، غالبا لا يعرف إحداثيات التقاطع إلا هو، إلا الله، وفي لحظة التقاطع يتقرر المحتوم، لا مصادفة في الأمر، لا خيار، لا مكنة للتغيير، يحدث الأمر هكذا وفقط، لأنها إرادته هو، لأنها إرادة الله، أفبعد هذا يمكنني أن أشكك في صداقة عمي احمد وأبي، أفبعد هذا يمكنني أن أستمر في احتقار هذا الذي كان صديق والدي، والدي الذي ائتمنه على أكثر أسراره خطورة، نبوءة العجوز، تلك التي طرقت باب دارنا في عام 54..

هكذا تحققت النبوءة.

facebook.com/the.Boooks

- هذه ليست نبوءة.. لعنة والعياذ بالله.

- لكن آخر حلقاتها لم يتحقق بعد.

- تقصد الابن العالم.

-نعم.

- تظن أنه أنت؟

- هو أنا بالتأكيد، فلم يبق سواي.

- ربما سيتحقق ذلك لاحقا.

قال ذلك، وفي عينيه كلام لا تصوغه الكلمات، وكأنه كان يعرف كيف تتحقق آخر حلقات النبوءة، ثم استمر في الكلام:

- ربما بعد حين، حين تخرج من هنا وتكمل دراسة الماجستير، ستتحقق كل النبوءة.

- لا أعتقد أن لها علاقة بالعلم أيا كان.

- وكيف تظن أنها ستتحقق إذن؟

- حين أقتلع الحقيقة من فم أمي.

- أية حقيقة تقصد؟

- أقصد حقيقتين: حقيقة ما قاله بوعلام لأمي حين طردنا، وحقيقة قبر أبي.

- وماذا قال بوعلام لأمك؟

- قال لها إن أبي كتب المنزل باسمه لأسباب تعرفها هي.

- وما حقيقة قبر أبيك؟

- لم أجده رغم بحثي عنه، ورغم ما بذلته من جهود لإيجاده.

- أنت إذا لم تر أبدا قبر أبيك، بعد كل هذا الوقت؟

facebook.com/the.Boooks

- نعم، لم أره.

- أنصحك أن تنسى هذه الأسئلة، من الأفضل أحيانا أن تظل الأمور المستورة مستورة.

- ولكنني أحتاج إلى معرفة الحقيقة.

- ما فائدة الحقيقة، إن كانت لا تجر إلا المآسي؟

- وما أدراك، ربما يكون فيها بعض الخير.

- لا أعتقد، وإلا لكانت أمك أول من يخبرك بها.

فجأة توقف عن الكلام، راح يرمقني بنظرات شعرت أنها تخترقني، أو كأنه كان قادرا على رؤية ما في داخلي؛ ثم ما هي إلا طرفة عين حتى أشاح بناظريه عني ليستعيد هدوءا حسبته أضاعه لسبب ما..

facebook.com/the.Boooks

- 6 -

أمضيت تلك الليلة وأنا أفكر في حديثي مع عمي احمد.

نعم عمي احمد فيمكنني أن أناديه هكذا فهو صديق أبي.

غريبة هذه الحياة، رجل لم أره من قبل ورغم ذلك يشد انتباهي، وحين أبدأ في احتقاره بسبب قتل ابنته، أعجب بفتوته وخصاله، ثم لا أكاد أعجب به حتى أجدني عدت إلى احتقاره من جديد، ولكنني حين أطمئن لشعوري هذا، تعصف الصدفة بكل شيء لأكتشف أنه صديق حميم لأبي، فأجدني مجبرا على احترامه وحبه إكراما لأبي.

في صبيحة يوم الغد أيقظني عمي احمد، كانت حوالي الساعة السادسة صباحا. أعطاني شفرة حلاقة لا أعرف من أين حصل عليها ولا أين كان يخبؤها، فقد كانت إدارة السجن تحظر كل ما من شأنه أن يستعمل لإلحاق الّأذى.

حلقت وجهي في حين كان هو يصلي الصبح والفجر معا، ثم جلسنا في مقدمة القاعة ومعظم المساجين نيام.

بدت القاعة كأنها مطلية بطلاء أزرق بسبب البطانيات الزرقاء التي كانت تغطي النائمين، في حين جلست وعمي احمد أمام باب القاعة الحديدية ندخن صامتين، ثم ما لبث أن عاد عمي احمد إلى فراشه ليكمل نومه إلى حين موعد نداء الثامنة.

قال لي وقد لاحظ قلقي:

- أشعر أنه آخر يوم لك معنا

facebook.com/the.Boooks

ابتسمت وأنا أربت على كتفه، فقد كان هذا اليوم يوم محاكمتي.

- أريدك يا بني أن تعرف، أنني بعدما سمعت قصتك وقصة إخوتك حزنت حزنا شديدا، بل وتمنيت لو كنت حاضرا لأمنع الأمر

- كيف لك أن تمنع الأمر المقدر؟

- لا أحد يمكنه ذلك، ولكنني أقول لو..

قاطعته:

- حتى وإن كنت حاضرا لما استطعت فعل شيء، كل ذلك كان قضاء وقدر.

- أستغفر الله، ولكنني لأسباب معينة كنت أملك القدرة على منع ما حدث لكم، ولكن لا أريدك أن تسألني عن هذه الأسباب؟

- ماذا تقصد؟، كأنك تخفي أمرا.

قلت وقد مسخ قلقي من المحاكمة إلى حيرة من شأن هذا الشيخ:

- لا يهم الآن، فقط تذكر أن أباك كان رجلا طيبا، ومهما سمعت عنه لاحقا، حاول أن تجد له عذرا في كل ما قد يخبرونك به عنه.

- أي طيبة وأي عذر بالله عليك، ثم ما شأن أبي في هذا الحديث؟

- أعذرني، ربما بدأ الكبر يفعل في الأفاعيل، فقط لا تنسى ما قلته لك.

ثم انصرف.

facebook.com/the.Boooks

خَاتِمَة

مثلما فعل في الجلسة الأولى، أرجأني السوفي إلى أن انتهى من الجميع، وحينها وقفت بين يديه، لكنني هذه المرة جعلت يدي خلف ظهري ولم أحاول التحديق في وجهه.

همس محامي الشاب في أذني:

- لا تخشى شيئا، فصديقتنا المشتركة اهتمت بكل شيء

حينها رفعت رأسي، فرأيت السوفي مبتسما وقد وجه كلامه إلى المحامي:

- تفضل أستاذ

قال ذلك بلطف لم تعتد عليه حتى شفتاه.

- سيدي القاضي، السيد وكيل الجمهورية. " قال المحامي مترافعا". إن الملف الذي وضعناه بين أيدي عدالتكم،

واستمر في مرافعته الطويلة، في حين وقف إسماعيل بجانبي وهو يهمس لي:

- أرأيت. كل شيء بخير

- ماذا تفعل أيها الأحمق.

دفعته إلى الخلف وقد خشيت أن يغير وقوفه معي من مزاج القاضي

- لا عليك من القاضي، ففي ملفك كل شيء

facebook.com/the.Boooks

"هل ازداد هذا الأبله حمقا في غيابي؟". قلت لنفسي وأنا أدفعه من جديد وأنظر في جهة القاضي، خوفا أن يلاحظني.

وإذ ذاك توقف المحامي عن المرافعة وقد دهش لما يحدث بيني وبين إسماعيل، أما القاضي فبقي يحدق في وقد اختفت ابتسامته، دون أن يعوضها بشيء آخر.

أقول ذلك لأن ما ارتسم على وجهه كان يشبه الشفقة، وهو شيء أبعد ما يكون عليه السوفي.

- سنكتفي بهذا القدر من مرافعة الدفاع والآن..

قاطعه المحامي الشاب:

- ولكن سيدي..

فرفع القاضي كفه من جهة البطن، يومئ للمحامي "أن كفى"

فصمت المحامي وتراجع للوراء وهو يهز رأسه، ثم نظر القاضي في جهة الوكيل، موجها إليه كلامه:

- يمكن لممثل النيابة أن يقدم طلباته

فقال بصوت غير مسموع وكأنه يحدث نفسه:

- تطبيق القانون.

وإذ ذاك، استعاد المحامي هيبته التي فقدها حين أمره القاضي بالسكوت، ورفع صوته:

- سيدي القاضي، الدفاع لم يقدم طلباته بعد..

فقاطعه القاضي:

- أعرف، أعرف، الملف الذي قدمته يفيد أنك تطالب بإسقاط التهمة.

facebook.com/the.Boooks

صمت للحظات وهو ينظر في ملف المحامي، ثم قال موجها كلامه إلي:

- هل يفهم المتهم ما يطالب به المحامي؟

- نعم، براءتي سيدي القاضي.

ابتسم للحظة وأردف:

- ملفك يا أستاذ قوي لدرجة أنني مجبر على إخلاء سبيلك، ولكن ذلك لا يعني براءتك.

همست إلى إسماعيل:

- ما هذا الهرج؟!..

- يا أستاذ ألا تكف عن هذا. المهم منذ متى وأنت على هذه الحال؟

- منذ عشرين يوما سيدي، منذ أن ألقي القبض علي في السيسيام.

ضحك القاضي والمحامي ووكيل الجمهورية، ثم ضحك الجالسون في القاعة، كلهم ضحكوا إلا إسماعيل وأمال، رأيتها واقفة في الصف الثاني، كانت تبكي..

علامَ تبكي؟.. ألم تسمع القاضي يقون أنه مجبر على إخلاء سبيلي؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال القاضي وهو يضرب كفا بكف، ثم ركز نظره من جديد في ملف المحامي، ودون أن يرفع رأسه قال:

- نظرا للملف الذي قدمه دفاع المتهم، نأمر بإلغاء الحكم

facebook.com/the.Boooks

الصادر وإخلاء سبيل المتهم.

***

بعد ساعة عدت إلى السجن، لم أكن هذه المرة منهكا، كنت سعيدا، غاية في السعادة.

عدت إلى السجن، ولكن هذه المرة لأخرج منه، فقد كانت الإجراءات تقتضي أن يعود المفرج عنه إلى المؤسسة العقابية، ليسلم الإدارة بطانيته ويتسلم بدوره ما تركه في صندوق الأمانة بالإضافة إلى وثيقة تثبت دخوله وخروجه من السجن.

دخلت القاعة فوجدت أن خبر إطلاق سراحي قد وصل قبل أن وصولي بدقائق، وإذا بقاديرو يأخذني بالأحضان، فقد كان سعيدا بخروجي من السجن، أو على الأقل هذا ما أحب أن أوهم به نفسي:

- مبروك، اليوم ستبيت بين أحضان زوجتك

- لعقوبة ليك إنشاء الله

- إنشاء الله ولكن أنت تعلم، " ابتسم بحسرة"، المهم أنك ستبيت اليوم خارجا.

وقبل أن أتفوه بكلمة أضاف:

- قل لي. ماذا ستفعل بأغراضك؟

- خدها جميعها إذا رغبت، فخيرك سابق

قلت وأنا أتلفت يمنة وشمالا، أحاول أن أرى عمي احمد

facebook.com/the.Boooks

- لا خير لا والو أنت بَرْك وليد فاميليا، والسجائر؟

- هي بينك وبين عمي احمد مناصفة.

قلت ولا زلت لم أبصر عمي احمد:

- إذن سأعمل على إرسالها إليه.

قال ذلك وهو يعد علب السجائر المتبقية"

- لِمَ، هل غادر القاعة؟

- نعم، بعد مغادرتك مباشرة.

- اعتقدتُ أنه مرتاح هنا.

قلت صادقا، فقد كنت أحب أن أراه قبل أن أخرج.

- هذا ما اعتقدته أيضا، ولكنه قبل خروجنا إلى الساحة، طلب الذهـاب إلـى العيـادة، وأنت كما تعلم، كل من يتم فحصه يجبر على تغيير القاعة.

- ربما أصيب بوعكة ما.

- لا أعتقد، رغم أنه بدا على غير عادته.

- ماذا تقصد؟

- لا شـيء بالتحديد، ولكنه بدا شـيخا ضعيفا، لم يعد الرجل الذي عرفته منذ سنين خلت.

قال بنبرة من كان يستذكر سنينا انقضت.

- رجل في الثمانين وتطلب منه أن يظل قويا؟!..

- لا أتحدث عن صحته، بل عن صلابته. فلم أر الرجل يبكي من قبل.

- يبكي؟!

facebook.com/the.Boooks

- على الأقل هذا ما ظهر عليه، وإن لم أر الدموع في عينيه. المسكين..

- ولكنني أتفهم مصابه.

- أي مصاب؟

- ربما يكون قد تذكر ابنته التي قتلها.

- هو الندم إذن، قد يقبل الله توبته.

- يقبلها.. يقبلها إن شاء الله، ولكن ذكرى قتله لابنته البريئة ستراوده حتى يدفن في قبره.

- بريئة؟!.. أي براءة في فتاة فاسدة، لم يقتلها إلا انتقاما لشرفه؟

- ماذا تقول؟.. كيف تكون ابنته فاسدة ولم تبلغ شهرها السادس حين قتلها.

"لم تبلغ شهرها السادس"، دوت هذه الجملة في رأسي، ولم ينته دويها إلا عند ذكرى دموع عمي احمد وأنا أقص عليه حكايتي، وذكرى آخر حديث دار بيننا:

- أريدك يا بني أن تعرف، أنني بعدما سمعت قصتك وقصة إخوتك حزنت حزنا شديدا، بل وتمنيت لو كنت حاضرا لأمنع الأمر

- كيف لك أن تمنع الأمر المقدر؟

- لا أحد يمكنه ذلك، ولكنني أقول لو..

facebook.com/the.Boooks

- حتى وإن كنت حاضرا لما استطعت فعل شيء، كل ذلك كان قضاء وقدر.

- أستغفر الله، ولكنني لأسباب معينة كنت أملك القدرة على منع ما حدث لكم، ولكن لا أريدك أن تسألني عن هذه الأسباب؟

- ماذا تقصد؟، كأنك تخفي أمرا.

- لا يهم الآن، فقط تذكر أن أباك كان رجلا طيبا، ومهما سمعت عنه لاحقا، حاول أن تجد له عذرا في كل ما قد يخبرونك به عنه

- أي طيبة وأي عذر بالله عليك، ثم ما شأن أبي في هذا الحديث؟

- أعذرني، ربما بدأ الكبر يفعل في الأفاعيل، فقط لا تنسى ما قلته لك "

تذكرت نظرة عمي احمد الرءوفة وهو يسمع اسمي أول مرة..

تذكرت الروايات المختلفة عن موت سناء الأولى..

تذكرت غضب أمي حين أسميت ابنة حمامة سناء..

تذكرت قبر أبي الذي لم أره أبدا، شاهد قبره الذي أقرأه قط، جنازته التي لم أحضرها..

تذكرت سؤال أمي الغريب عمن أرى وأصاحب داخل السجن..

تذكرت ثمالة أبي.. جلوسه على الحصيرة ليلا يصلي ويبكي..

وحينها، حين تذكرت ذلك، تكشفت الحقيقة: " واحد عالم،

facebook.com/the.Boooks

واحد.."..

أنـا العالـم أمـي فـي نبـوءة العجوز، عالـم بحقيقة أبـي، بحقيقة سناء..

أنا الرجل الذي دخل السجن يحلم بمستقبله، فخرج منه حاملا ماضيه، فإلى هنا حملتني المشيئة، إلى هذه الطريق، في تدفق أحداث لا تتوقف، كلها تأخذني إلى حيث أرادتني أن أكون تلك العجوز التي دقت بابنا ذات مساء من عام 1954

اعذريني أمي لأنني لن أحب أبي من جدي...

اعذريني لأنني لم أكن قويا كفاية حتى لا أومن بما آمنتِ به..

اعذرينـي لأننـي لـن أعـود إليـك كما خرجت مـن عندك، طفلا تحبيـن أن تجلسـيه علـى حجرك وأنـت تبكين ظلم أبي، وأنت تغنين أغنية تذكرت للتو كلماتها:

"ننسى

كيفاش حايبني ننسى

إذا نسيت أنا جرحي

كيفاش حايب من جرحي ينسى.. "

اعذريني لأنني لن أؤمن ببعثه من جديد، لن أصدق عودته إلينا هكذا، بعد سنين من الموت، التشرد والاحتجاز.

لن تكون عودته إلا حلما دجالا، إلا كابوس من لم يحلم أبدا، مثـل فجيعـة طفـل لـم ير أمه إلا خيالا، وحين رآهـا حقيقة، رآها في ماخور..

ولكنني رغما عنك، رغم حبك الصامت لي، رغم إيمانك الغبي

facebook.com/the.Boooks

بنبوءتك ورغم موت أبي أو بعثه سأستمر، سأخرج من غرفة البياض تلك كما خرجت من السجن، سأعبر باب ذاكرتي المقيت إلى مستقبلي كما عبرت الباب الموصدة، ورغما عنك سأعيد براءتي، عذريتي، حين أعيد إسماعيل إلي، حين أعيد عفاف إلى أمال. وحينها فقط، سأتمتم في أذن زوجتي حبيبتي: "أحبك"، سأقولها في كل لحظة، لتطمئن إلى حلمي السرمدي، حلم أن أنام باكرا، حلم أن نسمي ابنتنا سناء.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

انتهى يوم 20 أفريل 2008

الجزائر العاصمة

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks